جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية بأسيوط
المجلة العلمية

المعنى الواحد في القرآن الكريم بين الأصل والتشبيه

إعداد

د. وليد إبراهيم حمودة

أستاذ البلاغة والنقد المساعد

كلية اللغة العربية بإيتاي البارود - جامعة الأزهر

(العدد الثاني والأربعون)
(الإصدار الثاني ٠٠٠أكتوبر)
(الجزء الخامس (١٤٤٥هـ /٢٠٢٣م)

الترقيم الدولي للمجلة (ISSN) 2536- 9083)
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية : ٢٠٢٣/٦٢٧١م

المعنى الواحد في القرآن الكريم بين الأصل والتشبيه

وليد إبراهيم حمودة

قسم البلاغة والنقد، كلية اللغة العربية، جامعة الأزهر، إيتاي البارود، جمهورية مصر العربية.

البريد الإلكتروني: *waleewaleedtolba76@gmail.com*

الملخص :

أودع الله قرآنه المعجِز ما أسرَ به قلوبَ عباده، من عجائب لا تنتهي على كثرة الرد، وتعاقب الأزمان، وحارت أفهام العلماء في فض ختام إعجازه، فصدروا عنه شاهدين بغلبة سلطانه، وقهر شأوه وعزة بيانه، وذلك في كل الوجوه التي سمحت بها عقولهم، وراموا أن يلجوا منها إلى فتق أكمام أسراره، حتى ظهرت الغلبة وتمت في الوجه الذي كادوا يتفقون عليه، من أنَّ المعوَّل عليه في معرفة الإعجاز هو النظم الشريف، فترى القوم الكرام لا يرضون في نهاية تفصيلهم وضرب أمثالهم؛ إلا أن يثبتوا تعذر معرفة وجه الإعجاز على التحقيق، فردوه إلى الذوق، وتأثير القرآن في النفوس. بات أمر إعجاز القرآن ظاهرًا منذ نزوله، فعجز الخلق عن معارضته؛ لأنه أمر فوق الطاقة، لا تناله قدرة غير إلهية، ولا تطمح إليه نفس سوية؛ فبقي البحث والنظر في معانيه وأحكامه، ووعده ووعيده، وقصصه وأخباره، وحِكمه وآدابه، إلى غير ذلك مما اشتمل عليه، بقي البحث فيه من أجل وأشرف ما تُعنى به الأمة؛ لاتصاله بمقاصد الرسالة والوحي، وصدق النبوة، وإثبات المعجزة قدر الوسع والطاقة. ومعاني القرآن صُرفت في القرآن على وجوه عديدة من النظم وطرائق البيان، فأتى المعنى الواحد في موضع بالإيجاز، وفي آخر بالإطناب، ووردت القصة الواحدة في سور كثيرة بعدة أساليب، وتباينت التراكيب الحاملة للمعنى الواحد ومفرداتها، بين القَصر وعدمه، والتوكيد وعدمه، والتقديم والتأخير، والتعريف والتنكير، والتشبيه وعدم

التشبيه، أو الإتيان بالمعنى في صورته الأولى وهيئته الحقيقية، أو العدول عن ذلك إلى تشبيه أو استعارة أو كناية. وجميع وجوه النظم الشريف في غاية البلاغة وبديع النسج؛ لأنها تتسق مع سياقها الذي وردت فيه، ولن ترى في الكلام فوائد جليلة وبدائع لطيفة، إلا إذا روعي في التحليل ما يشتمل عليه من متناقضات ومتضادات أسلوبية. وهذا بحث وجيز في البلاغة القرآنية، يتعرض لدراسة تصرف النظم الشريف في المعنى الواحد بين التعبير بأصل المعنى وبين خصوصية التشبيه، قاصدًا إلى تجلية اللطائف والأسرار التي دعت إلى التعبير بالأصل تارة، وبالتشبيه تارة أخرى، مع مراعاة قرائن الحال والمقال.

الكلمات المفتاحية: المعنى الواحد ، القرآن الكريم ، الأصل ، التشبيه.

The one meaning in the Holy Qur'an is between the original and the simile

Walid Ibrahim Hamouda

Department of Rhetoric and Criticism، Faculty of Arabic Language، Al-Azhar University، Itay Al-Baroud، Arab Republic of Egypt.

Email: *waleewaleedtolba76@gmail.com*

Abstract:

God has deposited in His miraculous Qur'an the wonders with which it has captivated the hearts of His servants، of wonders that do not end despite the many replies and the succession of times. The understanding of the scholars was perplexed in explaining the conclusion of its miracle، so they issued from it bearing witness to the dominance of His authority، the subjugation of His desires، and the glory of His explanation، in all the ways that their minds allowed، and they sought That they resort to opening the sleeves of its secrets، until the dominance appeared and was completed in the way that they almost agreed upon، that what is relied upon in knowing the miracle is the honorable systems، so you see that the honorable people are not satisfied at the end of their details and examples of them; Unless they prove that it is impossible to know the face of the miracle upon investigation، then they refer it to taste. The influence of the Qur'an on souls. The miraculous nature of the Qur'an has become apparent since its revelation، and people have been unable to oppose it. Because it is something that is beyond our ability، and cannot be attained by any power other than God، nor can any normal soul aspire to it. So the research and consideration of its meanings and rulings، its promises and threats، its stories and news، its wisdom and etiquette،

and other things that it contains، remained to be researched for the sake of the most honorable thing that the nation is concerned with. Because it is connected to the purposes of the message and revelation، the truth of prophecy، and proving the miracle to the best of our ability and energy. The meanings of the Qur'an were expressed in the Qur'an in many ways of systems and methods of explanation، so the single meaning was stated in one place in brief، and in another. At another end، it was redundant، and the same story was mentioned in many surahs in several ways، and the structures carrying the same meaning and their vocabulary varied، between shortness and lack thereof، emphasis and lack thereof، precedence and delay، definition and indefiniteness، simile and lack of simile، or presenting the meaning in its first form and its true form، or evading that. To a simile، metaphor، or metaphor. All aspects of the noble system are extremely eloquent and beautifully composed. Because it is consistent with the context in which it was mentioned، and you will not see great benefits and pleasant innovations in the speech، unless the analysis takes into account the stylistic contradictions and antagonisms it contains. This is a brief study on Quranic rhetoric، which examines the behavior of noble systems In the same meaning between truth and simile، aiming to reveal the subtleties and secrets that called for expression with truth at times، and with simile at other times، taking into account the evidence of the situation and the article.

Keywords: ***The Single Meaning، The Holy Qur'an، The Origin، The Simile..***

تقـديم

الحمد لله الرَّحمنِ، علَّمَ القرآنَ، خلق الإنسانَ علمه البيانَ، فعَجز مع الجانِّ عن الإتيان بمثل آية من الفرقان، وبقي السرُّ مكنونًا ما تعاقب الجديدان، والصلاةُ والسلام على خير ولد عدنان، سيدِنا محمدٍ صلى اللهُ عليه وسلم كُلَّ آن، وعلى آله وصحبه الذين اتبعوه بإحسان.

أما بعدُ؛ فقد شاء الله – تعالى – وقضى بأن تبقى قلوب العباد متعلقة بكتابه الكريم؛ ليكون للمؤمنين هداية وبشارة ونورًا وشفاء ورحمة، فيزدادوا إيمانًا مع إيمانهم، ونكالًا على الجاحدين الظالمين، فيزدادوا خسرانًا ورجسًا إلى رجسهم.

وقد أودع الله قرآنه المعجِز ما أسرَ به قلوبَ عباده، من عجائب لا تنتهي على كثرة الرد، وتعاقب الأزمان، وحارت أفهام العلماء في فض ختام إعجازه، فصدروا عنه شاهدين بغلبة سلطانه، وقهر شأوه وعزة بيانه، وذلك في كل الوجوه التي سمحت بها عقولهم، وراموا أن يلجوا منها إلى فتق أكمام أسراره، حتى ظهرت الغلبة وتمت في الوجه الذي كادوا يتفقون عليه، من أنَّ المعوَّل عليه في معرفة الإعجاز هو النظم الشريف، فترى القوم الكرام لا يرضون في نهاية تفصيلهم وضرب أمثالهم؛ إلا أن يثبتوا تعذر معرفة وجه الإعجاز على التحقيق، فردوه إلى الذوق، وتأثير القرآن في النفوس.

وما أثبت العلماء ذلك في مصنفاتهم صدًّا عن البحث في إعجاز القرآن، إنما هو اعترافٌ بالعجز وتسليمٌ به، وهضمٌ للنفس، واستصغار لِما حرروه بجانب كمال كلام الله تعالى.

لقد بات أمر إعجاز القرآن ظاهرًا منذ نزوله، فعجز الخلق عن معارضته؛ لأنه أمر فوق الطاقة، لا تناله قدرة غير إلهية، ولا تطمح إليه نفس سوية؛ فبقي البحث والنظر في معانيه وأحكامه، ووعده ووعيده، وقصصه وأخباره، وحِكمه وآدابه، إلى

غير ذلك مما اشتمل عليه، بقي البحث فيه من أجل وأشرف ما تُعنى به الأمة؛ لاتصاله بمقاصد الرسالة والوحي، وصِدق النبوة، وإثبات المعجزة قدرَ الوسع والطاقة.

ومعاني القرآن وأحكامه، ووعده ووعيده، وقصصه وأخباره، وحِكمه وآدابه ...، صُرفت في القرآن على وجوه عديدة من النظم وطرائق البيان، فأتى المعنى الواحد في موضع بالإيجاز، وفي آخر بالإطناب، ووردت القصة الواحدة في سور كثيرة بعدة أساليب، وتباينت التراكيب الحاملة للمعنى الواحد ومفرداتها، بين القَصر وعدمه، والتوكيد وعدمه، والتقديم والتأخير، والتعريف والتنكير، والتشبيه وعدم التشبيه، أو الإتيان بالمعنى في صورته الأولى وهيئته الحقيقية، أو العدول عن ذلك إلى تشبيه أو استعارة أو كناية.

وجميع وجوه النظم الشريف في غاية البلاغة وبديع النسج؛ لأنها تتسق مع سياقها الذي وردت فيه، وهذا التنوع في وجوه النظم الشريف هو ما فتح آفاقًا مديدة في الدرس البلاغي منذ القرون الأولى وحتى الآن؛ لأن البلاغة قائمة في الأساس على فكرة (لكل مقام مقال)، ولن ترى في الكلام فوائد جليلة وبدائع لطيفة، إلا إذا روعي في التحليل ما يشتمل عليه من متناقضات ومتضادات أسلوبية.

وقد سيطرت تلك الفكرة على درس الإعجاز منذ القدم وحتى العصر الحديث، فنرى الإمام الخطابي (٣٨٨هـ) يعتمد في بيان الإعجاز على فكرة اختلاف أجناس الكلام، فمنها البليغ الرصين الجزل، ومنها الفصيح القريب السهل، ومنها الجائز الطلق الرَّسْلُ، وقد حازت بلاغات القرآن من كل قسم حصة، فانتظم لها بانتظام هذه الأوصاف نمطٌ من الكلام يجمع بين الفخامة والعذوبة، وهما على الانفراد في نعوتهما كالمتضادين.[١]

---

(١) بيان إعجاز القرآن: ٢٦.

وامتد اعتماد الخطابي على تلك الفكرة في مواضع أخرى من كتابه، كقضية تبدل المعنى لتبدل اللفظ، والتي انطلق فيها إلى بيان بلاغة المفردات القرآنية بمقارنتها بأخرى، وكذلك قضية اشتمال السورة الواحدة على موضوعات مختلفة ظاهرها التباين، ورَدَّ إشكالَ ذلك بأنه يكون أكثرَ لفائدته وأعمَّ لنفعه، كما فصله في موضعه.[1]

ولا نريد أن نطيل في شواهد ذلك، بل نشير في إيجاز إلى قوة الفكرة التي أبقتها إلى عصرنا، فنرى – مثلا – الدكتور محمد عبد الله دراز يقرر أن القرآن حين يجمع الأجناس المختلفة، لا يدعها حتى يبرزها في صورة مؤتلفة، ويجعل من اختلافها نفسه قوامًا لائتلافها، فترى الوحدة في السورة على تعدد معانيها وعناصرها ونزول آياتها في ظروف زمانية متباعدة. [2]

وإذا كان الخطابي قد أشبع ذلك على مستوى المفردات، وأشار إليه دون تطبيق على مستوى السورة، فإن هذا المستوى الأخير قد وفَّاه تطبيقيًّا د. دراز رحمه الله.

وهذا بحث وجيز متصل بتلك الفكرة، وهو بعنوان:

(المعنى الواحد في القرآن الكريم بين الأصل والتشبيه)

يتناول بعض معاني القرآن الكريم التي وردت تارة على أصل المعنى، وتارة مشتملة على صورة تشبيهية، وهذا تصريفٌ ظاهر وشائع في كتاب الله تعالى، نحو ذكر الريح التي أهلك بها قوم عاد بدون تشبيه في قوله سبحانه: (فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِيٓ أَيَّام نَّحِسَات) فصلت: ١٦، وقوله جل شأنه: (بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ) الأحقاف: ٢٤. وبالتشبيه في قوله تعالى: (وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ . مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ) الذاريات: ٤١-٤٢، وقوله

---

(1) ينظر: السابق: ٥٤.

(2) ينظر: النبأ العظيم: ١٥٥-١٦٣.

سبحانه: (إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِي يَوۡمِ نَحۡسٖ مُّسۡتَمِرّٖ . تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ) القمر: ١٩-٢٠.

ونحو الحديث عن نساء أهل الجنة في مواضع كثيرة بدون التشبيه، مثل قوله تعالى: (وَعِندَهُمۡ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ أَتۡرَابٌ) ص: ٥٢، وقوله تعالى: (كَذَٰلِكَ وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِين . يَدۡعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ) الدخان: ٥٤-٥٥، وقوله تعالى: (حُورٞ مَّقۡصُورَٰتٞ فِي ٱلۡخِيَامِ) الرحمن: ٧٢. وبالتشبيه في مواضع أخرى، مثل قوله تعالى: (وَعِندَهُمۡ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ عِينٞ . كَأَنَّهُنَّ بَيۡضٞ مَّكۡنُونٞ) الصافات: ٤٨-٤٩، وقوله سبحانه: (فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٞ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنّٞ . فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . كَأَنَّهُنَّ ٱلۡيَاقُوتُ وَٱلۡمَرۡجَانُ) الرحمن:٥٦-٥٨.

ومثل ذلك الحديث عن حال الجبال وقت قيام القيامة، ورجفة مدين، وعصا موسى، وضلال أعمال الكافرين، وأمر النبي بالصبر ...، إلى غير ذلك من موضوعات أو معان تنوع فيها النظم الشريف بين المعنى الأصلي المجرد من الصورة، وبين إيراد المعنى بالتشبيه؛ مما يشغل العقل، ويثر الخاطر، ويطلب التدبر والنظر.

ولم يكتب في ذلك أحدٌ فيما أعلم، إذ عُني بعض الباحثين والمؤلفين بدراسة تنوع تشبيهات القرآن الكريم، أي تنوع التشبيه لمشبه واحد أو معنى واحد، كما سيرد تفصيله في التمهيد.

والتعبير بالمعنى الواحد في عنوان البحث، قائم على أساس جنس المعنى وأصله وحقيقته الأولى، والفكرة المجردة الخالية من التصوير، فههنا عبارتان أصل المعنى فيهما واحد، ثم يكون لإحداهما خصوصية وكيفية تفترق بها عن الأخرى، كما عند الإمام عبد القاهر في الدلائل، من كون المعنيين يجمعهما جنس واحد، ثم يفترقان بخواص ومزايا وصفات، فالأمر – لا شك – مبنيٌّ على التجوز والتسامح، لأن أي

تغيير طارىء على أصل المعنى من ناحية المفردات أو التركيب أو التصوير، ينأى بالمعنى عن أصله وجنسه بمقدار هذا التغيير، لكن لمَّا كانت هذه طريقة ظاهرة في كتاب الله، دعت الضرورة إلى دراستها، وبيان أسرارها البلاغية في سياقاتها المختلفة، نصحًا لكتاب الله جل شأنه.

ومن ثم فالتوسع في (المعنى الواحد) هنا مطلوب ومستحسن، ولا يُعترَض بما عند الإمام عبد القاهر وشيخنا الدكتور محمد أبو موسى، من تشديد وتضييق؛ بمثل أن قول المتنبي –مثلا–: (وتأبى الطباع على الناقل) لا يُؤدَّى إلا بتلك العبارة، لا بغيرها بمثل (الطبع لا يتغير)؛ لأن الصياغة بأحوالها بناء للفكرة بكل شياتها، فإذا انهدمت الصياغة انهدمت معها هيأة الفكرة وذهب شكلها. [1]

نعم، هذا كلام صحيح مستقيم، لكن الداعي إلى التسامح في إطلاق مصطلح (المعنى الواحد) ثم دراسة مواضعه وفروق نظمه، هو كثرة وروده في كتاب الله تعالى، ولم يُدرَس في كتب المتشابه اللفظي، فألجأتنا الضرورة إلى تدبر أسراره تحت هذا المصطلح.

ثم إننا هنا لا نجتلب تعبيرًا نقارن به تعبير القرآن، كما عند الإمام مع بيت المتنبي، لكنا في القرآن أمام معنيين أحدهما بالتشبيه والآخر على أصله. فضلا عن أن الإمام كان يرمي إلى تفضيل المعنى المُصوَّر على الساذج الغُفل، بخلاف ما معنا في البلاغة القرآنية، فكلا التعبيرين في قمة البلاغة العالية المعجزة، والمقصود هو الكشف عن مناسبة كُلٍّ لسياقه.

ولذلك نعجب حين نقرأ عند شيخنا الدكتور أبو موسى عبارةً يتسع بها تضييقه، وتنفرج بها شدته، يقول: "إن عبد القاهر كان شديد التنبه للفرق بين المعنى الذي

([1]) يراجع: دلائل الإعجاز: ٤٢٣–٤٢٥، التصوير البياني: ٤٢٧–٤٤١.

يرسَل إرسالًا ساذجًا، وبين المعنى نفسه حين يصاغ صياغة أدبية". [١] فيثبت (المعنى الواحد) من حيث يريد أن ينفيه، وذلك قوله: (المعنى نفسه).

ونظرًا لقلة بضاعتي وخوفي من قول ما ليس لي به علم، اقتصرت في هذا البحث على دراسة أربعة معان، وحاولت قدر الوسع أن أكشف عن سر كُلٍّ في سياقه وموضعه، مستعينًا بالغرض العام ومقصد السورة، وأقوال أهل العلم من المفسرين والمعربين والبلاغيين، وأسأله سبحانه التوفيق والسداد، وغفران الزلات.

استوى البحث في مقدمة وتمهيد وأربعة مباحث وخاتمة وفهرسين.

أما المقدمة، فقد بينت فيها أهمية البحث وسبب اختياره ومنهج السير فيه، واشتمل التمهيد على ثلاثة أمور، هي: جذور الفكرة وقطوفها، إشارات سابقة، وظيفة التشبيه.

ودارت مباحث الدراسة حول أربعة معان، هي: الخروج من الأجداث، نساء أهل الجنة، ولدان الجنة، شجرة الزقوم. واشتملت الخاتمة على أهم النتائج والتوصيات.

واتفق أن أتت جميع المباحث والمعاني في أحوال الآخرة، وأحسب أنها أكثر المعاني تفننًا وتصرُّفًا في القرآن، خاصة من هذا الوجه الذي نعالجه، لكني لم أقصد إلى ذلك، بل عمدت إلى شواهد، وكان ذلك مما هُديت إليه، وأرجو الله –تعالى– أن يوفقني إلى دراسة بقية المعاني في مستقبل العمر بقدرته وعونه، والحمد لله رب العالمين.

وليد إبراهيم حمودة

الثلاثاء ١١ من ربيع الأول ١٤٤٥هـ

الموافق ٢٦ من سبتمبر ٢٠٢٣م

---

(١) التصوير البياني: ٤٣١. ويصرح بقوله: "نعم يستقيم كلامهم –أي كلام البلاغيين في تعريف البيان– إذا أرادوا بالمعنى الواحد جنسه الذي تدخل فيه الهيئات والأنواع المختلفة، كجنس الخاتم والسوار من غير مراعاة لما بينها من فروق في الشكل والصورة، وفي هذا ما ترى، وما الذي يبقى لنا من المعاني إذا رجعنا بها إلى هذا الجنس". ص ٤٤١. فيثبت فكرة جنس المعنى وأصله، لكنه يبقى غير مطمئن.

التمهيـــد

أولًا: جذور الفكرة وقطوفها

ثانياً: إشـــارات ســـابقة

ثالثاً: وظيـــفة التشـــبيه

أولا: جذور الفكرة وقطوفها

فكرة المقارنة بين التعبير بأصل المعنى وإيرادِه مُصوَّرًا، من الفِكر التي ترد على الذهن لأول نظر، وتُقذف إلى العقل والخاطر ابتداء، دون تعمُّد طلب، وتكلفِ منطق، وكَدِّ قريحة، وما ذلك إلا لأن الضد يستدعي الضد، والأصلَ أن يُؤتى بالمعنى غيرَ مُصوَّر، فالصورة زيادة على أصل المعنى، ومن هنا كانت فكرة المقارنة بين مواضع الأصل والزيادة فكرة قريبة وضرورية، خاصة مع وفرة شواهدها في البيان القرآني المعجز.

ونهدف هنا إلى تتبع جذور تلك الفكرة في تراثنا البلاغي؛ للوقوف على حظ المقارنة بين الطريقتين في التعبير من كلامهم، ومذاهبهم في تناول الفكرة بين النظرية والتطبيق؛ كي نقتدي بهداهم، ونعلم أننا بصراط مستقيم، غير أننا لا نرمي إلى استقصاء الجذور، وفلي مصنفات القوم، وإثبات كل نص وشاهد؛ فليس ذلك من هدف الدراسة والبحث، ويكفي من القلادة ما أحاط بالجِيد.

ونبدأ بقدامة بن جعفر (٣٣٧هـ) وهو من أهل الفلسفة وأصحاب علم الكلام، وممن يشار إليهم في المنطق؛ ولذلك كان معنيًّا في كتابه بالتقسيم ووضع الحدود، يظهر ذلك من أول عبارة في كتابه: "العلم بالشعر ينقسم أقسامًا ..." ثم شرع في تعدادها وتفصيلها.

ومن ثم نجد جذورًا للفكرة عنده أثناء حديثه عن نعوت ائتلاف اللفظ والمعنى، فعد منها (التمثيل)، وهو "أن يريد الشاعر إشارة إلى معنى فيضع كلامًا يدل على معنى آخر، وذلك المعنى الآخر والكلام منبئان عما أراد أن يشير إليه". [١] يعني أن الشاعر لا يعبر عن المعنى بأصله المجرد، بل يعدل إلى تصويره، فقوله: (إلى معنى) هو

---

(١) نقد الشعر: ١٥٨.

المعنى المجرد الخالي من التشبيه والتصوير عمومًا، وقوله: (معنى آخر) هو الصورة التي أتي بها للمعنى الأول، وبذلك يظهر حضور الفكرة في ذهن قدامة، فثمة أصل للمعنى يعدل عنه الشاعر إلى تصويره وتمثيله للطائف بلاغية ومقاصد نفسية ووجدانية ومقامية، حتى يتحول إلى معنى مغاير للأصل ويكون هو الحامل لمراد الشاعر، المنبيء عما أراد أن يشير إليه. والمُلبِسُ في التعريف هو لفظ (الكلام) في قوله: (وذلك المعنى الآخر والكلام منبئان عما أراد أن يشير إليه)؛ فلم يجعل المعنى الآخر (المصوَّر- المُمثَّل) وحده منبئًا عن مراد الشاعر، بل ضم إليه (الكلام)، وهو غير مفهوم، وقد يَقصد به أن سياق الكلام يدل على المعنى المراد الذي هو الأصل المجرد من التمثيل والتصوير، وأن ليس المراد العناصر الجزئية المكونة للصورة، فيكون الكلام بمثابة القرينة.

وضرب قدامة للتمثيل تسعة شواهد تندرج تحت جميع طرق البيان من التشبيه والمجاز والكناية، وسأكتفي هنا بإيراد ما يعد من التشبيه، وهما شاهدان، أولهما قول يزيد بن مالك:

فإنْ ضَجُّوا منَّا زَأَرْنا فلم يكن شبيهًا بِزَأْر الأُسْد ضَبْحُ الثعالبِ

قال: "فقد أشار إلى قوتهم وضعف أعدائهم إشارة مستغربة، لها من الوقع بالتمثيل ما لم يكن لو ذُكر الشيءُ المشار إليه بلفظه".[1] والتشبيه المنفي في البيت مبني على الاستعارة في (زأرنا)، والمعنى الأول المجرد هو قوة قوم يزيد وضعف أعدائهم، لكنه لم يعبر هذا التعبير الصريح، بل عمد إلى التمثيل لما له من وقع بديع مستغرب.

والثاني قول العباس بن مرداس:

---

(١) نقد الشعر: ١٦٠. وضبح الثعلب: صاح.

كانوا أمام المؤمنين دَريئةً والبِيضُ يومئذ عليهم أشمُسُ

قال: "يريد أن البيض عليهم قد صارت شموسًا". (١) فالبيض مشبه، وأشمُس مشبه به، لكن تفسيره أورده على أنه استعارة؛ إمعانًا في المبالغة من السخرية بالعدو ومدى جُبنهم وخزيهم وضعفهم أمام المؤمنين، حتى كان قتالهم من تحت خوذاتهم الكثيرة الضخمة التي هي كالشموس لشدة لمعانها واستتارهم من تحتها.

وبذلك يتبين فضل قدامة وسبقُه في إدراكه المبكر لفكرة المقارنة بين المعنى وصورته، وتحقيق ذلك في تعريف التمثيل، بإثبات المعنى المجرد مقابَلًا بالمعنى المصوَّر، ثم عقد مقارنة بين كلا المعنيين في الشواهد التي أثبتها، كي ينتهي إلى الفضائل التي تفيدها الصورة إذا اكتساها المعنى وتزيَّا بها، من الإيضاح، الاستظراف بالتمثيل، الإغراب في الدلالة، الإبداع في المقالة.

وقد نبه قدامة إلى أن الشاعر يكون على معرفة بالمعنى المجرد القريب، قبل أن يأتي به مصوّرًا، نلمح ذلك في تعليقه على بيت الرَّمَّاح بن ميادة:

ألم تك في يُمنَى يديك جعلتَني فلا تجعلني بعدها في شمالكا

---

(١) السابق: ١٦٢. والقصيدة في الحماسة البصرية: ١/١١٩. وقال المحقق: "الدريئة ما يستتر به الصائد ليخدع الصيد". وقال ابن السكيت: "وهو أن تستتر ببعير أو غيره فإذا أمكنك الرمي رميته". إصلاح المنطق: ١٥٦. ويمكن أن يراد بالدريئة الحلقة التي تُؤخَذ لتَعلُّم الطعن. ينظر: أساس البلاغة: (درأ) ١/٢٦٦. ومن ذلك قول قطري بن الفجاءة: (فلقد أراني للرماح دريئةً من عن يميني مرةً وأمامي). قال أبو علي القالي: الدريئة مهموزة: الحلقة التي يتعلم عليها الطعن، وهي فعيلة بمعنى مفعولة من درأت أي دفعت. ينظر: الأمالي: ٢/١٩٠. ويكون ذلك أشد تنكيلًا وأعظم استهزاءً؛ فهم لرماح المؤمنين بمنزلة الحلقة التي يتعلم عليها الطعن. والمعنى على أن الدريئة هي ما يُستتر به أنهم قد اتقوا رماح المؤمنين بتلك الخوذات الضخمة اللامعة فلم يظهر منهم أحد حتى كانوا في أنفسهم رديئة. يراجع: شرح الحماسة للمرزوقي: ١٠٢في شرحه لبيت ابن الفجاءة.

يقول: "فعدل عن أن يقول: إنه كان عنده مُقدَّمًا فلا يؤخره، أو مُقرَّبًا فلا يبعده، أو مُجتَبَى فلا يجتنبه، إلى أن قال: إنه كان في يمنى يديه فلا يجعله في اليسرى؛ ذهابًا نحو الأمر الذي قصد إليه بلفظ ومعنى يجريان مجرى المثل له، وقَصْدَ الإغراب في الدلالة، والإبداع في المقالة".[1] فقوله: (فعدل ...) يقرر أن المعنيين يكونان في عقل الشاعر، لكنه يعدل عن الأصل المجرد، ويذهب قاصدًا إلى الصورة كي يجري الكلام مجرى المثل، فيذيع ويشتهر، بما فيه من إغراب وإبداع.

ونثني بالإمام أبي الحسن الرماني (٣٨٦هـ)، وإشاراته في باب التشبيه الذي يُكسب الكلامَ بيانًا عجيبًا على حد قوله، وقد جعل من أغراض التشبيه إخراج ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه الحاسة، مثل قوله تعالى: (وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ) النور: ٣٩، فالتشبيه بيان بالمحسوس لمعنى معقول، "وقد تضمن حسن النظم، وعذوبة اللفظ، وكثرة الفائدة، وصحة الدلالة".[2] ونصُّ الرماني على أن من ثمار التشبيه (كثرة الفائدة) لا بد أن يكون ملحوظًا فيه المقارنة الذهنية الخفية بين التشبيه وأصل المعنى، فهو يستحضر المعنى الأصلي وهو أن أعمال المشركين لن تنفعهم يوم القيامة، ويقارنه بالتصوير القرآني البديع، ويسجل ثمار آثار هذا التصوير، ويجعل منها كثرة الفائدة، وهي ثمرة ذات أثر خطير في الدرس التطبيقي الذي يُعنى بالمقارنة بين السياقات التي ورد فيها المعنى بالتشبيه، وبين الأخرى التي ورد فيها مجرَّدًا على أصله وحقيقته الأولية.

ويقارن الرماني كذلك بين المعنى على الاستعارة والمعنى الأصلي، تنظيرًا وتطبيقًا؛ فيضع أصلًا جامعًا في ذلك، وهو قوله: "وكل استعارة حسنة فهي توجب بيان لا تنوب منابه الحقيقة، وذلك أنه لو كان تقوم مقامه الحقيقة، كانت أولى به،

---

(١) نقد الشعر: ١٥٩.

(٢) النكت في إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن): ٨٢.

ولم تَجُز الاستعارة، وكل استعارة فلا بد لها من حقيقة، وهي أصل الدلالة على المعنى في اللغة." (١)

ولاحظ ابتداء موضع الفاء الداخلة على الخبر في قوله: (فهي توجب)، (فلا بد لها)، لأن ذلك من المغفول عنه في فضل بيان القوم، وتلمس خفيِّ دلالات نظمه؛ وما غاب عنا علمُ ذلك بل الشعور به؛ إلا لأنا تركنا طريقة الحديث به، وليس هنا موضع التفصيل، فعدِّ عن هذا.

اعتمد الرماني هذا الأصل، من أن كل استعارة لها حقيقة ترجع إليها، وهي الصورة الأولى للألفاظ في وضعها اللغوي، قبل التصرف المجازي، وبذلك يكون قد وضع الأصل مقابلًا بالصورة، كما قرر أن الاستعارة الحسنة في سياقها ومقامها لا يُستغنَى عنها بالحقيقة؛ لأنها تفيد دلالات بيانية لا تتحقق بالحقيقة، خاصة المبالغة في المعنى.

وقد طبق ذلك على جميع الاستعارات القرآنية التي أوردها، فأتى بحقيقة المعنى، وسجل أن الاستعارة أبلغ منه، ثم يتبع ذلك بسر تلك الأبلغية، في منهجية بديعة لا تتخلف في آية.

وفي باب (التصريف) الذي هو أحد الأقسام العشرة للبلاغة التي هي أحد وجوه الإعجاز عند الرماني، يقرر أن الحجاج على الكفار قد ظهر واستبان بأن أتي في المعنى الواحد بالدلالات المختلفة، وهذا من البلاغة في أعلى طبقة، وذلك كتصرف المعنى في قصة موسى عليه السلام في عدة مواضع من القرآن الكريم، وذلك لوجوه

---

(١) السابق: ٨٦. وتأثر به الباقلاني في فصله الذي عقده في (وصف وجوه من البلاغة)، ونقل كثيرًا من شواهده، وعلق على الاستعارة في قوله تعالى: (فضربنا على آذانهم) الكهف: ١١١، بقوله: "يريد أن لا إحساس بآذانهم من غير صمم ...، وهذا أوقع من اللفظ الظاهر، وأبلغ من الكلام الموضوع". إعجاز القرآن: ١٨٨، وينظر: النكت: ٩٤.

من الحكمة، منها التصرف في البلاغة، وتمكين العبرة والموعظة، وحل الشبهة في المعجزة. (١)

وهذا النظر يقذف بنا إلى عوالم الإعجاز الشريف، ويجعل هذا البحث متصلًا به، وبيانًا لنُتف منه، ولست أهلًا لذلك، ولذلك لا أطمئن إلى إيراد كلمة الإعجاز في عناوين البحوث؛ لأن في ذلك فرضًا وإلزامًا بأن الإعجاز حصل بهذا، وهذا أمر خطير؛ لأن منبع العلم أمران: نقل وعقل، أمَا ولا نقل في وجه الإعجاز، فالعقل يقبل الجدال في كل وجه بعد ذلك؛ ولذلك رأينا الوجوه تتكاثر، ورأينا السادة العلماء في كل عصر يؤكدون على أن معرفة وجه الإعجاز في القرآن تتعذر، وهي كلمة الخطابي في السطر الثالث من مقدمة رسالته، والتي يختمها بما يقرب من ذلك، فيثبت أن في إعجاز القرآن وجهًا آخر هو صنيعه بالقلوب وتأثيره في النفوس، ويحكم السكاكي بأن مدرك الإعجاز هو الذوق في نهاية مفتاحه، إلى أن ننتهي إلى علامة عصرنا شيخنا الدكتور محمد أبو موسى الذي أفاض في تقرير هذا الأمر، من أن مسألة الوقوف على سر الإعجاز وبيانِ علته بيانًا يُؤخذ باليد، أو كالشيء يُعد واحدًا واحدًا، كما صنع الباقلاني وعبد القاهر، مسألة مثارة منذ عهود التأليف الأولى ولا نرى لها إجابة واضحة، يقول: "وليس بين يدي كتاب واحد من كتب البلاغة والإعجاز، أصاب الهدف الذي رمى إليه صاحبه"، وليس هذا قدحًا في الجهود، إنما هي دعوة إلى مواصلة السير والبحث والعمل والتدبر في كتاب الله المعجز الذي لا يخلق على كثرة الرد. (٢)

لذلك أحترس بأن بحثي في بلاغة القرآن العليا، ولا يرتقي إلى بيان وجه الإعجاز، لكن الرماني صرح بأن مجيء المعنى الواحد في النظم الشريف بدلالات مختلفة، ظهر به الحجاج على الكفار، وهذا مما يفتح بابًا لمقارنات بين بلاغة القرآن

---

(١) ينظر: السابق: ١٠١-١٠٢.

(٢) يراجع: الإعجاز البلاغي، د. محمد أبو موسى: ٤٤-٤٥، ١٥٥-١٥٦.

وطريقته في مثل هذا، وبين كلام العرب لنعرف على التحقيق فضل القرآن عليهم حتى بلغ درجة الإعجاز، وذلك على التوسع في كلمة الرماني (التصريف) وشاهدِه من قصة موسى، فيشمل ما نحن بصدده من المعنى الواحد الذي ورد بالتشبيه وبدونه، ويتصل بذلك نص الرماني في (الإيجاز): "وإذا عرفت الإيجاز ومراتبه وتأملت ما جاء في القرآن منه، عرفت فضيلته على سائر الكلام".[١] وهو بهذا – كما يقرر شيخنا أبو موسى – يفتح بابًا من البحث أشد وأصعب؛ لأنه يعني دراسة بلاغة الإيجاز في جميع كلام العرب، ثم تأمل بيان الإيجاز القرآني، وهذا باب واسع جدًّا ومليء بالغوامض. [٢]

ولعل شجاعة الرماني في عد هذا من أقسام البلاغة التي يُعرف بها الإعجاز، يجعل لهذا البحث حظًّا من الجزاء في الهداية إلى طريق الإعجاز، مع التأكيد على الاحتراس السابق.

ويلتقي الإمام أبو سليمان الخطابي (٣٨٨هـ) مع الرمانيّ في أن الاستعارة الحسنة لا تنوب الحقيقة منابها، مما دعاه إلى استحضار المعنى الأصلي المجرد؛ كي يوازنه بالصورة الاستعارية، لينتهي إلى أنها تحقق المبالغة في المعنى، لكنه يصرح بما ليس عند الرماني فيقول: "وقد تكون الاستعارة في بعض المواضع أبلغ من الحقيقة ..." [٣]، فيجعل لكل مقام مقالًا خاصًّا يقتضيه من الحقيقة أو المجاز، وبذلك ندرك أن فكرة المقارنة بين المعنيين كانت حاضرة بذهنه. وقد ظهر ذلك جليًّا في تأويله لبلاغة الاستعارة في مثل قوله سبحانه: (فاصدع بما تؤمر) الحجر: ٩٤،

---

(١) النكت: ٨٠.

(٢) ينظر: الإعجاز البلاغي: ٩٦-٩٧.

(٣) بيان إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن): ٤٤.

فالاستعارة في (اصدع) أبلغ من (فاعمل) على الحقيقة؛ لأن في الاستعارة مبالغة فيما أمر به حتى يؤثر في النفوس والقلوب تأثير الصدع في الزجاج ونحوه.

وكذلك قوله تعالى: (هلك عني سلطانيه) الحاقة: ٢٩، ففي (هلك) استعارة، والحقيقة (ذهب)، لكن الذهاب قد يكون على مراصدة العود، وليس مع الهلاك بُقْيًا ولا رُجْعَى. (١)

فنلاحظ أنه يأتي بالمعنى الحقيقي المجرد من الصورة، ليعقد مفاضلة بينه وبين الاستعارة، ويقرر أن السياق يطلب المعنى في ثوب الاستعارة.

لكن لم ينشغل كلٌّ من الرماني والخطابي وغيرهما بالنظر في سياقات مواضع عدم التشبيه أو عدم الاستعارة في القرآن الكريم؛ ليكشفوا عن سر إيثار النظم الشريف لذلك في مواضعه، مقارَنًا بمواضع التشبيه والاستعارة للمعنى الواحد، وهذا مناط البحث.

ويُثري الإمام عبد القاهر الجرجاني (٤٧١هـ) ما سبق عند الرماني والخطابي، ويَروي نَبْتَه في مواضع عديدة من كتابيه، حين يقارن بين المعاني على سبيل التنظير أو التطبيق.

وتتبعُ مواضع ذلك في الأسرار والدلائل ثم إثباتُها والتعليقُ عليها مما يطيل التمهيدَ، خاصة إذا راعينا لغة الإمام الأدبية الساحرة، وعنايته بالإحاطة بالفكرة من كل جانب، ودعمِها بكل دليل، ولذلك نكتفي ببعض المواضع التي تدل على المقصود.

في بداية حديث الإمام عن الاستعارة المفيدة يضع الأصل الذي قرره الرماني، من أن الاستعارة المفيدة هي التي يظهر بها فائدة ومعنى وغرضًا، ولولا مكان تلك الاستعارة لم يحصل ذلك. وجَعل جملةَ هذه الفائدة في التشبيه التي تختلف طرقه

---

(١) بيان إعجاز القرآن: ٤٤.

وتتشعب مذاهبه. فالاستعارة تفيد المبالغة في الوصف المقصود من الشجاعة والكرم والحُسن وغيرها من المعاني، بما لا يتحقق في التعبير بالحقيقة. (١)

ويمضي الإمام في بيان فضل الاستعارة وحسنها بلغته العالية، فهي تُخرج من بحرها الجواهر، وتُبدي أوصافًا ومحاسن لا تُنكر، وتُثير من معدنها التِّبر، وتأتي بفضائل لها من الشرف الرتبة العليا، ثم ينتهي بعد سرد طويل في التغزل بالاستعارة – إن جاز التعبير– وإجمال مكارمها البيانية، إلى المقارنة بينها وبين التعبير بالحقيقة في لفظ وجيز، وهو قوله: "وهي أجل من أن تأتي الصفة على حقيقة حالها، وتستوفي جملة جمالها". (٢)

ظاهرٌ أن الإمام يقارن بين المعاني إذا كُسيت لباس الاستعارة، وبينها على حقيقتها وأصلها دون أن تتجمل وتتحلى بالصورة، فالمعنى مع الاستعارة أجل، لكن تأمَّلْ قوله: (وتستوفي جملة جمالها) مع أفعل التفضيل (أجل)، الذي يشير ويوميء به إلى أنه لا يَسلب التعبير بالحقيقة فضله، ولا يرفع عنه الفضيلة والجلال والجمال، لأن التفضيل بين المعنيين في الجلال والجمال يفيد أنهما مشتركان في حد منه، فللحقيقة قدر من الجلال والجمال، إلا أنه مستوفى في الاستعارة، ولا ريب أن لكلٍّ مقامَه الذي يتجلى فيه ويحسن.

---

(١) ينظر: أسرار البلاغة: ٣٢-٣٣.

(٢) السابق: ٤٢. ولذلك قرر الزمخشري أن التمثيل في قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله) له فائدة جليلة – ولاحظ انبثاق وصفه من وصف الإمام (أجل) – ليست في الكلام العريان، فأطلق على الكلام الخالي من التمثيل وصف (العريان). ينظر: الكشاف: ٥/٥٥٥.

ومن البين أن هذا البسط من الإمام مرده إلى فكرة (كثرة الفائدة) التي بزغت في نكت الرماني، لكن بيان الإمام واستقصاءه في الشرح والتفصيل يفتح آفاقًا أخرى من النظر.

قلتُ: (ظاهرٌ أن الإمام يقارن بين المعاني ...)، والخفيُّ هو أسلوبه العجيب وتنوعه بين الإطناب والإيجاز، فحين أثنى على الاستعارة أمدَّ الكلام وبسطه وزاد فيه حتى بلغ أحد عشر سطرًا ليس هنا موضع تحليلها، وحين انتهى إلى المقارنة بذكر الحقيقة أمسك وأوجز حتى بلغ سطرًا، تناسبًا مع هدفه وقصده ونتيجة مقارنته، ثم ينثني مرة أخرى إلى عد فضائل الاستعارة حتى يبلغ صفحة كاملة، وهذا بابٌ يطلب الطارقين.

وفي تناوله للتمثيل وحالِ المعنى معه، يعتمد على مبدأ المقارنة بين المعنى المجرد من التمثيل وبين التمثيل، ويقرر أن المعاني إذا نقلت عن صورها الأصلية إلى صورة التمثيل، رفع ذلك من أقدارها، وتحركت النفوس لها.

ويحكم بأن ذلك مما اتفق العقلاء عليه؛ لذلك تقل الحاجة فيه إلى التعريف، وضَربِ الشواهد، لكنه يمضي في إيراد عدد من شواهد التمثيل، ويقارن بين حال المعنى فيها وحالِه إذا عري عن التمثيل، لينتهي إلى تأكيد بُعد ما بين الحالين في تمكن المعنى وتحببه ونُبله، كما يورق شجره ويُثمر، ويفترُّ ثغره ويبسِم، فتكثر الفوائد واللطائف، بخلاف سلوك المعنى الظاهر من العبارة.

وكلمات الإمام صريحة في الموازنة بين الحالين، ولا نريد الإطالة في النقل، وراجع مثل قوله: (ثم قسها ...، وبين أن تتبعه نحو ...، فقابل بين أن تقول ...، فوازن بين قولك ...).[1]

---

(١) ينظر: أسرار البلاغة: ١١٥-١٢١.

ومما يفيد في الدرس التطبيقي ما قرره الإمام في أسباب تأثير التمثيل في النفس، من "أن المعنى إذا أتاك مُمثَّلًا، فهو في الأكثر ينجلي لك بعد أن يُحوجك إلى طلبه بالفكرة وتحريك الخاطر له والهمة في طلبه". (١) فالمعنى مع التمثيل يطلب مزيدًا من الفكر للوقوف على أبعاده وغرضه وسر إيراده وفائدته وصلته بعناصر الخطاب، مما يُبطِيء من حركة الاستماع أو القراءة للنص، وهو إبطاءٌ قد يكون مقصودًا ومتناسبًا مع السياق والغرض، بخلاف إيراد المعنى على حقيقته، وبذلك يتبين أن مقام الحقيقة غير مقام التشبيه والتصوير عمومًا.

وحديث الإمام وشواهده في الموازنة بين المعنى المتحد واللفظ المتعدد، لا يدخل فيما معنا، فلا يُظن أنه يقصد بالقسم الذي ترى فيه أحدَ الشاعرين قد أتى بالمعنى غُفلًا ساذجًا، وترى الآخر قد أخرجه في صورة تروق وتُعجِب (٢)، لا يُظنُّ أنه يقصد أن أحد الشاعرين أتى بالمعنى على حقيقته وأصله، وأتى به الآخر مُصوَّرًا بالتمثيل أو الاستعارة، لم يقصد الإمام إلى ذلك، إنما كان يعالج قضية السرقة، ويصحح النظر لقوم حكموا بالسرقة على كل معنى مُتفَقٍ فيه، ولو تدبروا لعرفوا فضلَ شاعر على شاعر، وشرفَ معنى على معنى بزيادة أو حسن نظم أو بديع تصوير ...، فهذا ما عناه بقوله في بيان الغُفل الساذج، والمُصوَّر المصنوع: "ويكون ذلك إما لأنَّ متأخرًا قَصَّر عن متقدم، وإما لأنْ هُدي متأخرٌ لشيء لم يهتد إليه متقدم".

وهذا ما فهمه شيخنا الدكتور محمد شادي في شرحه على الدلائل، فقرر أن الإمام هنا يعيد صياغة الفكر النقدي في ضوء الشواهد الكثيرة التي أتى بها، ويُفهم من

---

(١) أسرار البلاغة: ١٣٩.

(٢) ينظر: دلائل الإعجاز: ٤٨٩.

كلامه أنه لا يعنيه الأخذ من جهة الكم، إنما كان يعنيه كيفية الأخذ، وهل قصر الشاعر عن سابقه أو أجاد. [١]

ولذلك لا نرى الدكتور شادي في شرحه لشواهد الإمام والوقوف على سر تفضيله لشاعر على آخر، لا نرى فضيلته ينطلق في شرحه وبيانه من كون أحد الشاعرين قد صور المعنى، وأن الآخر أتى به على حقيقته؛ لأن ذلك يتناقض مع الأبيات التي أوردها الإمام؛ إذ تشتمل جميعها على التصوير تقريبًا، ومن ثم اعتمد على أمور أخرى في بيان فضيلة البيت الذي ارتفع شأنه عند الإمام، من مثل تمام المعنى، حسن النظم، التناسب، غزارة المعنى، التفصيل فيه، الغرابة، توهج الإحساس، جمال الموسيقى ...، وغير ذلك مما يبعد عن كون المعنى على حقيقته أو مصوَّرًا.

ويشير الإمام أبو يعقوب السكاكي (٦٢٦هـ) – في صدر حديثه عن التشبيه – إلى الأمور التي لا تخفى على القارىء، لأنها مما لا تحوج إلى دقيق نظر، فذكرها مجملة، وعدَّ منها "أن التشبيه لا يُصار إليه إلا لغرض".[٢]

ولا شك أنه ناظر في قوله إلى اعتبار الحقيقة والأصل، وأن المتكلم لا يعدل إلى التشبيه إلا لغرض في نفسه يتسق مع المقام والسياق وقرائن الأحوال.

وبذلك ندرك قيمة البحث وأهميته؛ لأنه إذا كان التشبيه لا يُؤتى به إلا لغرض؛ فإن دراسة المعنى على أصله وجنسه ومقارنته بالمعنى في صورة التشبيه، من الضرورة بمكان، خاصة إذا وقع هذا التنوع في الخطاب القرآني الحكيم.

ولا يعدم الباحث إشارات لتلك المقارنة في مصادر أخرى، لكنها مع قلتها إما أن ترتد إلى ما أثبتُّه، أو تتصل بالفكرة من بعيد، مثل ما اجتمعوا عليه من أن مرجع

---

(١) ينظر: شرح دلائل الإعجاز: ٥٩٥-٥٦٠.

(٢) مفتاح العلوم: ٣٣٢.

طرق البيان إلى اعتبار المبالغة في إثبات المعنى للشيء [١]، لأن القول بالمبالغة أو غيرها من أغراض طرق البيان فيما ورد مُصوَّرًا، يستدعي توجيهًا لإيراد المعنى على حقيقته وأصله وعدمِ مراعاة المبالغة وغيرها من معان، سيما في مواضع ذلك من التنزيل الكريم.

ونخلص هنا إلى أن الفكرة قريبة ومنطقية؛ لذلك ظهرت جلية في الفكر البلاغي، على مستوى التنظير، وحين التعليق على الشواهد، لكن الحقيقة أنَّ القضية لم تشغلهم إلا بقدر ما سعوا إليه من بيان منزلة التشبيه أو التصوير وتأثيره في النفوس، وقصد تفضيله على الإتيان بالمعنى خاليًا من التصوير.

(١) ينظر: الصناعتين: ٢٦١، سر الفصاحة: ٢٩٠، العمدة: ٢٨٨/١، المثل السائر: ٣٨١/١، بديع القرآن لابن أبي الإصبع: ٨٤-٨٥، الطراز: ١٣١، التبيان في البيان: ٣٤٠-٣٤١، وغيرها.

ثانياً: إشارات سابقة

مضى الحديث عن جذور فكرة البحث وأصالتها عند أسلافنا الكرام، وهنا موضع الحديث عن الإشارات التي وردت بشأن الفكرة في مصنفات المعاصرين من علمائنا الأفاضل.

وأسجل في صدر الحديث أنني لم أقف على دراسة خاصة مستقلة أو ضمنية، عُنيت بهذا الموضوع؛ ولذلك قلت (إشارات سابقة) دون دراسات سابقة، لكن لما كانت الفكرة قريبة ومنطقية كما سبق بيانه وتقريره، كانت مظنة الحضور في الدراسات البلاغية المتعلقة بعلم البيان، الذي يبحث في إيراد المعنى الواحد في طرق مختلفة.

وما سبق من حديث عن الجذور كان على مستوى التنظير والتطبيق عمومًا، سواء في الشعر أم القرآن الكريم، حيث أشير إلى المعنى الأصلي مُقارَنًا بحاله مُمثَّلًا أو مصوَّرًا.

أما هنا فالحديث عن دراسات خاصة بالقرآن الكريم، على مستوى التطبيق غالبًا، وقد اشتملت على لمحات تهدي إلى أهمية دراسة فكرة المقارنة بين الطريقين، دون أن تتعرض هي لذلك؛ لأنه لم يكن مقصدًا لها.

وأهم تلك الدراسات (أسرار تنوع تشبيهات القرآن الكريم – دراسة بلاغية) لشيخنا الأستاذ الدكتور/ إبراهيم صلاح الهدهد – حفظه الله تعالى – وكانت رسالته للماجستير، ثم طُبعت بحمد لله، لتُشرق أنوارها، وتكون فتحًا لدروب أخرى من البحث والنظر.

وكما يظهر من العنوان فقد عُنيت الدراسة بالبحث والنظر في تنوع تشبيهات القرآن الكريم للمعنى الواحد في سياقات مختلفة، مثل تشبيه الجبال وقت قيام الساعة بقوله تعالى: (فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا) طه: ١٠٦، وقوله تعالى: (فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا) الواقعة: ٦، وقوله سبحانه: (يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا) المزمل: ١٤. ومثل تشبيه

نساء الجنة في الآيات: (كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ) الصافات: ٤٩، (كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ) الرحمن: ٥٨، (وَحُورٌ عِينٌ . كَأَمْثَالِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ) الواقعة: ٢٢-٢٣.

ولفضيلة الدكتور الهدهد جهد عظيم في الدراسة التي التزمت المنهج الفني المقارن، وقد قصد استقصاء المواضع في القرآن الكريم، ووازن بينها، معتمدًا على السياق وأسباب النزول، ومراعاة ترتيب السور، وربط الأسرار والدلائل بمطالع السور الكريمة، وقرر أن مظنة الصواب في هذا البحث قليلة جدا، هضمًا للنفس وتواضعًا، واعترافًا بجلال القرآن وإعجازه، وحثًّا على مواصلة البحث وإنفاق الجهد وإعنات الفكر.

وقد التزم شيخنا بحدود دراسته ومنهجه، فلم يُعن بالنظر في المواضع التي وردت بدون تشبيه، لكن لما كان الأمر كأنه مركوزٌ في الفطرة قريبٌ من العقل كما تقرر؛ رأيناه يشير إلى المواضع التي وردت بدون تشبيه في بعض مباحثه، حين كان يستقصي مواضع التشبيه قبل دراستها وتحليلها، نجد ذلك في اثني عشر مبحثًا من جملة مباحثه التي بلغت خمسةً وثلاثين[1]، ولمَّا لم يكن ذلك هدفًا له لم يحرص عليه في جميع المباحث.

ويشير شيخنا إشارة وحيدة إلى سر ورود المعنى بدون التشبيه، في مبحث تشبيهات نساء أهل الجنة، فقابل بين موضعي سورة الرحمن (فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ . فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ) الرحمن: ٥٦-٥٨، (حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِي ٱلْخِيَامِ . فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) الرحمن: ٧٢، ووجَّه عدم إيراد التشبيه في الثاني بقوله: "وكأن التفاضل

(١) ينظر: أسرار تنوع تشبيهات القرآن الكريم: ٨٢، ٩٦، ١٣٩، ٢٠٠، ٢٦١، ٣٢٠، ٣٨٦، ٤٠٤، ٤٣٨، ٤٥٥، ٤٧٧، ٤٩٠.

بين الجنتين وقع بالتشبيه، إذ أظهر أوصافًا في نسائها ليست في الثانية". [1] وهو توجيه بديع في لفظ وجيز، وهو ما أثبتُّه وفصَّلته في هاتين الآيتين في موقعهما من هذا البحث، وذلك قبل أن أطلع على توجيه شيخنا الكريم، فلمَّا قرأته اطمأن قلبي، والحمد لله.

وتتناول د/ ملك حسن عبد الرزاق الموضوع ذاته تحت عنوان (أسرار التنوع في تشبيهات القرآن الكريم)، وهي رسالة نالت بها درجة الماجستير من جامعة أم القرى عام ١٤٠٩-١٤١٠هـ، أشرف عليها أستاذنا الدكتور/ عبد الفتاح لاشين، وناقشها شيخي العلامة الأستاذ الدكتور/ صبَّاح دراز، وشيخي الفاضل الأستاذ الدكتور/ الشحات أبو ستيت.

وليس هنا موضع المقارنة بين تناول شيخنا الدكتور الهدهد، وتناول دكتورة ملك؛ إلا أن النظرة الأولى والقراءة السريعة تثبت فضل شيخنا الدكتور الهدهد واستقصاءه ودقته والتزامه المنهج، وعظيمَ جهده الذي أتى به في أربعة فصول تشمل خمسة وثلاثين مبحثًا، ولذا فقد أحاط بالموضوع بعد تتبع لمواضع الآيات واستقصاء لها من كتاب الله تعالى.

ولم تبلغ د/ ملك حدَّ الاستقصاء، واكتفت ببعض الشواهد القرآنية الدالة على الفكرة والموضوع، فأتت رسالتها في ستة فصول غير مقسمة إلى مباحث، واشتملت على خمس عشرة آية فقط، وهذا قدر قليل جدًّا إذا ما عُرف أن الآيات التي تنوعت فيها التشبيهات عند د/ الهدهد بلغت مائة وثلاثًا وعشرين آية، وقد قام بدراستها جميعًا.

ويبدو أن التفاوت الكبير في عدد الآيات بين الرسالتين راجع إلى أن د/ ملك لم تَرمِ إلى الاستقصاء الذي رمى إليه شيخنا معالي الدكتور الهدهد، سواء من ناحية

---

(١) السابق: ٢٨٣.

استقصاء المعاني أو الموضوعات القرآنية التي تنوعت تشبيهاتها، أم من ناحية استقصاء الآيات في المعنى والموضوع الواحد، وهذا ما لم تقم به د/ ملك، فقد ذكرت -مثلًا- للمنافقين موضعًا واحدًا فيه تشبيهان (البقرة ١٦-٢٠)، بينما درس د/ الهدهد خمس تشبيهات (البقرة: ١٦-٢٠، الأحزاب: ١٨-١٩، محمد: ٢٠، المنافقون: ٤). [١] وهذا التفاوت بين الدراستين في عدد الآيات للمعنى الواحد أمره يسير، لكن الخطب الأجل في التفاوت بين المعاني أو الموضوعات القرآنية التي تعرضت لها كلٌّ من الدراستين، فقد بلغت (١٢٣) موضوعًا عند د/ الهدهد، وهذا ما جعل دراسة فضيلته أشمل وأوسع وأرحب، وأكثر موضوعية وصدقًا.

ولا يعني ذلك أن دراسة د/ الهدهد تُغني عن دراسة د/ ملك، فالحق أن بها فوائد ولطائف بلاغية وأسلوبية بديعة، وأجمل ما فيها التناول المجمل للآيات بتعبير أدبي رقراق، فتجمعها في خيط واحد، ثم تثني بتحليل كل آية في موضع خاص، تبدأ فيه ببيان أسرار المناسبة بين الآية والسياقين القريب والعام، ثم تنعطف إلى دراسة اللغة والنظم. كما كان لها عناية في التنبيه إلى اشتراك التشبيهات في معنى عام، يسبق الكشف عن خصوصية كل تشبيه في موضعه وسياقه. وقد سَجلتْ في المقدمة أن شيخنا الدكتور محمد أبو موسى هو من وجهها إلى دراسة هذا الموضوع، فجزاهما الله خير الجزاء.

أما عن تعرض د/ ملك حسن للفكرة التي نعالجها هنا، فإنها قد وضعت مدخلًا موجزًا لكل فصل، عُنيت فيه بالإشارة إلى أن المعنى قد ورد في القرآن الكريم بطرق

---

(١) ينظر: أسرار التنوع في تشبيهات القرآن الكريم، د/ ملك حسن: ٢٧٩، أسرار تنوع تشبيهات القرآن الكريم، د/ إبراهيم الهدهد: ٢٦١، ٢٨٣.

مختلفة، من الحقيقة أو التشبيه أو المجاز [١]، وكانت تذكر بعض الآيات التي تحمل المعنى في صورته الأصلية أو الحقيقية دون تشبيه أو مجاز، إلا أنها لم تتعرض لتوجيه ذلك بلاغيًّا، بل عمدت إلى دراسة ما يخص موضوعها من تنوع التشبيهات.

وأنبه هنا إلى أن لشيخي الأستاذ الدكتور/ صَبَّاح دراز –رحمه الله– جهدًا كبير في هذا الباب، فقد جمع التشبيهات المتنوعة للمعنى الواحد، في موضوعات كثيرة من كتاب الله تعالى، تتصل بالعقيدة، أعمال الكفار، الإيمان وسلوكه، الدنيا وحقيقتها، أحداث القيامة ...، وكشف عن جوانب من بلاغتها، وتناسبها في سياقاتها الشريفة، بأسلوبه الأدبي الأخاذ الآسر، وقرر تناسق التشبيهات القرآنية –على تفرقها– واتفاقها في معالجة الموضوع من جميع جوانبه، أو رسم ملامح خاصة. [٢] لكنه لم يتعرض لمحور هذا البحث.

ومما يتصل بالدراستين السابقتين بحثُ شيخنا الأستاذ الدكتور/ سلامة جمعة داود، (تشبيهات الجنة والنار في القرآن الكريم). [٣]

ولم تتعرض د/ ملك لمعاني الجنة والنار، ضمن موضوعات كثيرة جدًّا تركتها، كما سبق بيانه، لكن أفاض فيه د/ الهدهد في الفصل الرابع الذي عقده لتنوع التشبيهات في أمور الآخرة، وذكر تحته ثلاثة عشر مبحثًا، كل مبحث يتناول موضوعًا ومعنى خاصًّا باليوم الآخر، مثل: (أمر الساعة، حال الناس عند القيامة، الجبال عند قيام الساعة، نساء أهل الجنة، خدم الجنة، جهنم ...).

---

(١) ينظر: أسرار التنوع في تشبيهات القرآن الكريم، د/ ملك حسن: ٢، ٨٧، ١٦٢، ٢٢١، ٢٧٩، ٣١١.

(٢) يراجع: دراسات في علم البيان والتشبيه القرآني، د/ صبَّاح دراز: ١٣٢–٢٣٦.

(٣) نُشر في مجلة كلية اللغة العربية بإيتاي البارود، مجلد (٣٠) عدد (١) عام ٢٠١٧م ، ثم جعله شيخنا فصلا في كتابه (من البلاغة القرآنية)، نشر مكتبة وهبة، ط أولى ٢٠٢١م.

وللدكتور سلامة داود إضافات جديدة وإشراقات منيرة في دراسته، ولطائف ودقائق لا تُنال إلا بحس مرهف ووجدان بصير، وقد قرر فضيلته أن "شمول النظر في طرائق البيان القرآني عن الجنة والنار، هو الطريق الأقوم إلى جمع أطراف الموضوع، واستبصار شيء من أنوار الذكر الحكيم". (١) ومن ثم هُدي إلى لطائف أخرى غير ما ذكره شيخنا د/ الهدهد، نتيجة تضييق حلقة البحث. وقد أقام د/ سلامة بحثه على أربعة محاور، مهَّد فيها دروبًا أخرى للبحث والدراسة في بلاغة القرآن الكريم، ومن تلك الدروب إجالةُ النظر في معاني القرآن الكريم التي خلت من التشبيه والمجاز، والبحثُ في سر إيثار النظم الشريف الحقيقةَ فيها على التصوير، وذلك حين تحدث عن (تشبيه سعة الجنة) في قوله تعالى: (وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ) آل عمران: ١٣٣، وقوله سبحانه: (سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ) الحديد: ٢١، فاستوقفه ما سَبق التشبيهَ في الآيتين الكريمتين من ذكر المسارعة إلى مغفرة الله ﷻ والجنة، ثم انصراف الآيتين إلى تشبيه سعة الجنة دون تشبيه سعة مغفرة الله تعالى، وقد وجَّه ذلك بقوله: "إشارةً إلى أنه إذا كانت الجنة -وهي من خلق الله تعالى وصنعه- لا تَصف السمواتُ والأرضُ عرضَها إلا على جهة التمثيل والتقريب لا التحقيقِ والتحديد، فكيف يُحاط بوصف سعة مغفرته ﷻ؟ ولذا اكتفى البيان القرآني في وصف سعة مغفرته ﷻ بالإخبار في قوله تعالى: (إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِۚ هُوَ أَعۡلَمُ بِكُمۡ إِذۡ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ) النجم: ٣٢، من غير تشبيه ولا تمثيل؛ لأنه لا شبيه لها ولا مثيل؛ لتظل النفوس معلقة بسعة مغفرته، عاجزة عن تقريب سعتها، ليقف العقل عند منتهاه". (٢) وهذا

---

(١) تشبيهات الجنة والنار في القرآن الكريم: ١٣.

(٢) السابق: ١٦-١٧.

كلام نفيس يُعض عليه بالنواجذ، ويبث العزم في نفوس أصحاب الهمم العالية التي تطلب الجديد في البلاغة القرآنية المعجزة.

أما عن منهج فضيلته فقد جمع الآيات التي تتضمن تشبيهات متنوعة لمعنى واحد، ثم قام بدراسة سياقها وخصائص نظمها والفروق بينها؛ للانتهاء إلى سر تناسب كل تشبيه مع مقامه وسياقه، كما راعى في استنباط اللطائف ترتيبَ المصحف وترتيبَ النزول.

ولم يُعن شيخنا د/ سلامة بذكر الآيات التي ورد فيها المعنى على أصله إلا في موضع واحد، في حديثه عن (تشبيه طعام أهل النار)، فأثبت أن القرآن الكريم ذكر طعام أهل النار في مواضع، منها ما جاء على غير طريق التشبيه، مثل قوله سبحانه: (فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ . وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ . لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ) الحاقة: ٣٥-٣٧، وقوله تعالى: (لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ . لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ) الغاشية: ٦-٧، ومنها ما جاء على طريق التشبيه، ثم ذكر موضعي تشبيه شجرة الزقوم (الصافات: ٦٢-٦٥، الدخان: ٤٣-٤٦). (١)

ويلاحظ أنه وسَّع المعنى في طعام أهل النار: الغسلين والضريع والزقوم، وجمعها تحت معنى واحد، ويمكن دراسة ذلك تحت الفكرة التي أثارها قبل، من سر إيراد الضريع والغسلين بدون تشبيه، وسر إيراد الزقوم بالتشبيه مرتين وبدون تشبيه مرة (الواقعة: ٥٢)، وبحثي خاص في الأخير وما هو على طريقته وشاكلته في القرآن الكريم.

ومجمل القول أن د/ سلامة داود لم يقصد في محاوره إلى مقارنة مواضع التشبيه بمواضع أصل المعنى؛ لأنه لم يكن غرضًا له.

---

(١) ينظر: تشبيهات الجنة والنار في القرآن الكريم: ٤٣، ٤٨.

ويثبت شيخنا الأستاذ الدكتور/ محمد إبراهيم شادي أن المقام قد يقتضي الحقيقة، أثناء تناوله لمستوى التنوع في الطرق التعبيرية، فيقول: "وقد يقتضي المقامُ الوقوف عند التصوير الحقيقي للمعنى، ويكون كافيًا لتحقيق الغاية منه، وقد يقتضي سياقٌ آخر التعبير عن المعنى بالتشبيه بعنصر خاص يهدف إلى تحقيق مزيد من التأثير، وقد يتعدد المشبه به مع أن المشبه واحد، بحسب المقام". وضرب مثالًا بالبيان القرآني عن شجرة الزقوم الذي تباين بين الحقيقة والتشبيه، فتعددت الصور التعبيرية لتعدد السور القرآنية، ولكل سورة سياق ومقام خاص، ثم أهدانا لمحة خاطفة عن سر ذلك؛ تتمثل في أنه لما كان السياق في الواقعة إجماليًّا، اقتضى عدمَ التشبيه، بخلاف التفصيل الذي اقتضى في الصافات الكشفَ عن موقعِ تلك الشجرة وشكلِ ثمارها لمزيد من التخويف، كما اقتضى في الدخان الكشفَ عن بشاعة طعمها، وجميعُ الحلقات والصور تشكل في النهاية تصورًا كاملًا عن طبيعة الشجرة التي يأكل منها المكذبون، وقمةُ البيان أن تتعدد صور التعبير عن المعنى، ثم نجد مع كل صورة خصوصية وإضافة جديدة. ثم ضرب مثالًا آخر بحركة الجبال يوم القيامة، وألمح إلى جانب من بلاغة طرائقها البيانية، وأخبر بأن تفصيل ذلك له مجال آخر.[١]

ذكر د/ شادي في نصه السابق ثلاث طرق للتعبير، من الأصل وحده، والتشبيه وحده، وتنوع التشبيهات لمشبه واحد، والعجيب أن عناية الدارسين عكفت على الطريق الأخير، ولم يُعن أحدٌ بدراسة المعنى على أصله مقارَنا بإيراده مشبَّهًا أو مصوَّرًا، كما لم يُعن أحدٌ بدراسة إيراد المعنى على الأصل والحقيقة فقط في السياق القرآني المعجز، كما ألمح د/ سلامة داود من قبل.

والبديع في كلام د/ شادي تعبيره بقوله: (التصوير الحقيقي)، متجهًا بذلك اتجاهًا أدبيًّا يتوسع في مفهوم التصوير، كما نراه عند سيد قطب.

---

(١) ينظر: أساليب البيان والصورة القرآنية: ١٤-١٧.

ويعتمد سيد قطب في كتابه (التصوير الفني في القرآن) على فكرة المقارنة بين المعنى في هيئته الذهنية المجردة عن الصورة، وبينه إذا ما تحلى بها، أثناء تقريره فضل الطريقة التصويرية في القرآن، فالمعاني في الطريق الأول تخاطب الذهن والوعي، وتصل إليهما مجردة من ظلالها الجميلة، بخلاف الطريق الثاني الذي يُخاطَب فيه الحس والوجدان، ولهذا فضلٌ في تبليغ الدعوة، ويضرب لذلك بعض الشواهد القرآنية، ويقارنها بالمعاني في صورتها الأولية المجردة، كي يثبت أن للتعبير القرآني ظلالًا تتصل به، تزيد في مساحته النفسية.(١)

وننبه هنا إلى أن التصوير عند الأستاذ سيد قطب ذو مفهوم واسع، فيشمل اللون، الحركة، التخييل، الإيقاع، الوصف، الحوار، جرس الكلمات، نغم العبارات، موسيقى السياق، كي تشترك جميع الحواس مع الوجدان في التأثر بالمعنى وأصدائه.(٢) ولذلك نجد بعضَ الآيات التي يُرجِع فضيلة التعبير فيها إلى التصوير، نجدها تخلو أحيانًا من طرائق التصوير المعروفة عند البلاغيين؛ لأنه أطلق مفهوم التصوير، وبذلك لا يمكن أن نتصور مرورَ فكرة البحث بخاطره، فاهتم –كغيره– باختلاف الصورة من موضع لآخر، والغرضُ واحد والموضوع واحد، لأهداف دينية وموضوعية وسياسية، وإذا تغيرت الصورة تغير المعنى بمقدارها.

كما يقرر أن التصوير الفني في القرآن الكريم يتنوع من ناحية المدة المقررة لبقاء المشهد معروضًا على الأنظار في الخيال، فبعض المشاهد يمر سريعًا خاطفًا، وبعضها يطول ويطول، حتى ليُخيَّل للمرء أحيانًا أنه لن يزول، ويتسق كل ذلك مع المقام والغرض العام. (٣)

---

(١) ينظر: التصوير الفني في القرآن الكريم: ٢٤١-٢٤٣.

(٢) ينظر: السابق: ٣٧.

(٣) ينظر: التصوير الفني في القرآن: ١٢٨.

ولا شك أن اعتبار ذلك مفيدٌ في التحليل والدرس البلاغي، وإذا كان سيد قطب قد اعتبره في المقارنة بين مشهدين أو موضعين بُنيا على التصوير، فإننا قد اعتبرناه في المقارنة بين موضع إيراد المعنى على أصله وحقيقته، وبين إيراده في صورة التشبيه.

وفكرة بقاء المعنى مدة أطول في ذهن المخاطب، سبق استنباطها من حديث عبد القاهر عن أسباب تأثير التمثيل، والتي منها أنه يُحوج إلى طلب المعنى بالفكرة وتحريك الخاطر، والهمة في طلبه، مما يطلب وقوفًا أطول مع المعنى والسياق، فتبطؤ حركة الاستماع والقراءة، في سياق يكون مقصودًا فيه الإطناب وبسطَ إشغال الذهن، بخلاف إيراد المعنى على أصله.

وبذلك ننتهي إلى أن دراسات المعاصرين لم تُعن بهذا الموضوع، بل قصدوا إلى دراسة تنوع تشبيهات القرآن الكريم، والمعنى واحد، فكثرت الدراسات والبحوث في هذا الموضوع، وكان لكل كاتب إضافات جديدة، تدل على إعجاز القرآن الكريم وغزارة عطائه الشريف، وأنه لا يخلق على كثرة الرد، مع إدراكهم لفكرة بحثنا القريبة والإشارة إليها.

ثالثاً: وظيفة التشبيه

فائدة التشبيه في الكلام باتت ذائعة مشتهرة، لكني أثبت هنا إشارات العلماء عن دوره في المعاني في إيجاز شديد؛ لأن كثيرًا من تنظيرهم ينسحب على الشعر دون القرآن الكريم، لكنا لا نعدم إشارات تهدينا السبيل حين نلج باب المقارنة بين المعنى الواحد الذي ورد بالتشبيه وبدونه؛ لأن التشبيه إذا برز في السياق تجلت معه فوائده وظلاله ودلالاته، وإذا قَصد السياقُ تجريدَ المعنى فلا ريب أنه قصدَ أيضًا عدمَ استحضار تلك الدلالاتِ والظلالِ التي يحققها التشبيه، ومن هنا تتجلى قيمة البحث سيما إذا كان في رياض القرآن الكريم وفي رحاب تصرفاته المعجزة وبيانه القاهر.

ونود أن نثبت هنا أن علماءنا كانوا على وعي عظيم بأنّ المعنى الواحد يرد في صور مختلفة، وعلمُ البيان قائمٌ على هذا الأصل: إيراد المعنى الواحد في صور مختلفة في وضوح الدلالة، ومن ذلك قول عبد القاهر: "إنه يصح أن تكون ههنا عبارتان أصلُ المعنى فيهما واحدٌ، ثم يكون لإحداهما في تحسين ذلك المعنى وتزيينه، وإحداثِ خصوصية فيه تأثيرٌ لا يكون للأخرى." [1] وقد شاع هذا الأمر في المجموعات الأدبية مثل المعاني الكبير لابن قتيبة، زهر الآداب للحصري، ديوان المعاني للعسكري، المحب والمحبوب والمشموم والمشروب للسري الرفاء، التشبيهات لابن أبي عون.

وكان غرض الإمام من تأليف الأسرار[2] أن يتوصل إلى بيان أمر المعاني كيف تختلف وتتفق، ومن أين تجتمع وتفترق، وأن يُبين أحوالها؛ ولذلك قرر أن مِن الكلام ما هو شريفٌ، شرَفُهُ في ذاته، ويزيد التصوير في قيمته ويرفع من قدره، ومِن الكلام ما هو غير شريف في ذاته وأصله ومعدنه، لكن الصنعة والتصوير يثبتان له قيمة

---

(١) دلائل الإعجاز:٤٢٣.

(٢) ينظر: أسرار البلاغة:٢٦-٢٧.

ومنزلة، فإذا نُزعت عنه الصورة، سقطت قيمته، وانحطت رتبته، وزهدت فيه رغبات كانت تطمح إليه، وبيَّن الإمامُ أن ذلك غرض بعيد، لا يُدرَكُ إلا بعد مقدمات تُقدم، وأصولٍ تُمهد، وكان أول تلك المقدمات حديثه عن أقطاب المعاني: التشبيه، التمثيل، الاستعارة. لكن تطبيقات الإمام لم تتجه صوب موضوع هذا البحث؛ لأنه لم يكن من مقاصده التي أمَّها.

وظائف التشبيه التي نبَّه إليها العلماء:

١- البيان والتوضيح [١]، وهي فائدة التشبيه الكبرى، كما قرر العلويُّ، لأنه يُخرج المبهم إلى الإيضاح، وأنسُ النفوس أن تخرجها من خفيٍّ إلى جليّ كما قرر الإمام؛ لأن المراد هو تقريب الصفة وإفهام السامع.

٢- المبالغة[٢]؛ إذ يُلحَق فيه الأدنى بالأعلى، وقرر العلويُّ أنَّ جميع تصرفات التشبيه لا تنفك عن إفادة المبالغة؛ لأن ذلك هو مقصده الأعظم، ولا يكاد يخلو تشبيه عن إرادة المبالغة.

٣- الإيجاز والاختصار.[٣]

٤- التوكيد وتمكين المعنى.[٤]

٥- إكساب اللفظ رونقًا ورشاقةً، والمعنى دقةً ولطافةً.[٥]

---

(١) يراجع: الصناعتين:٢٦٥، سر الفصاحة:٢٩٠، الأقصى القريب: ٤١، أسرار البلاغة:١٢١، المثل السائر:١/٣٧٨، تحرير التحبير:١٥٩، الطراز:١٢٧، ١٣١، ١٣٣، الإيضاح:٤/٢٢، البرهان للزركشي: ٣/٤١٥، الإتقان للسيوطي:٣/١٢٨، علم البيان، د/ بدوي طبانة: ١٠٧-١٠٩، مباحث في طرق علم البيان، د/ رفعت السوداني: ٢٧.

(٢) يراجع: الصناعتين:٢٦١، التبيان:٣٤٠-٣٤١، المثل السائر:١/٣٧٨، الطراز:١٢٧، ١٣١-١٣٢، ١٤٩، علم البيان، د/ بدوي طبانة:١٠٧، ١٠٩، فن التشبيه، علي الجندي: ١/٧٧-٧٨.

(٣) يراجع: المثل السائر:١/٣٧٨، الطراز:١٣١-١٣٢، البرهان:٣/٤١٥، الإتقان:٣/١٢٨، علم البيان:١٠٩.

(٤) يراجع: الطراز: الإيضاح:٤/٢٢، علم البيان:١٠٦، فن التشبيه، علي الجندي: ١/٧٧-٧٨.

(٥) الطراز:١٢٧.

٦- التخييل وتوليد الصور، والجمع بين المتباينات والمتباعدات، ومضاعفة قوى النفس إلى المقصود، مما يعمل على إثارة الفكر، وكثرة الإيحاءات والظلال، وثراء الدلالة.(١)

ويمكننا أن نلتقط من تنظير الإمام عبد القاهر وتطبيقاته إشارات خاصة، مثل تقريره أن جل محاسن الكلام تتفرع عن التشبيه والتمثيل والاستعارة وترجع إليها، وهو ما استقر عليه حديثًا في بيان أهمية الصورة(٢)، مثل قولهم بأن الشعر تفكير بالصور، وأن المنبع الأساسي للشعر الخالص هو الصورة، وأن الشعر قائم على الصورة منذ أن وجد إلى اليوم، وأنها تمثل روح الشعرِ وجوهره الثابت وقوته؛ لأنها تحيل المجردات إلى امتثالات مادية تنفعل لها الحواس.

ويمكن أن نأخذ من حديث الإمام عن أثر التمثيل في المعاني: تمكّن المعنى، وتحببه إلى المتلقي، ونبله في نفسه، وتوفيره لأنسه، والحكم للقائل بالصدق في قوله وبالحق فيما ادعاه، فيحقق الإقناع لأنه يمثل دليلا على المعنى والحكم؛ لما للمشاهدة من أثر في النفوس، كما أن التمثيل يبعث على طلب المعنى بالفكرة وتحريك الخاطر له والهمة في طلبه، والشئ يكون نيله أحلى إذا حصل بعد اشتياق طلب ومعاناة.(٣)

---

(١) يراجع: أسرار البلاغة:١٣٩، المثل السائر:١/٣٧٨، الإيضاح:٤/١٩، علم البيان:١١٠.

(٢) ينظر: أسرار البلاغة:٢٧، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي، د/ جابر عصفور:٥، الصورة الشعرية في الخطاب البلاغي والنقدي، د/ الولي محمد:٨، فن الشعر، د/ إحسان عباس:٢٣٨، ٢٣٠، النقد الأدبي الحديث، د/ محمد غنيمي هلال:٣٥٦-٣٥٧، قضايا النقد الأدبي بين النظرية والتطبيق، د/ طه عبد البر:٢٥٠.

(٣) يراجع: الأسرار:١١٦-١٣٩، دراسة في البلاغة والشعر:٩٧.

كما يمكننا أن نفيد مما تقرر من أن الصورة الفنية – والتشبيه في مقدمة مكوناتها– تُحدث خصوصيةً وتأثيرًا في المعنى وطريقة عرضه، لكنها لا تغير من طبيعته في ذاته؛ لأنها يمكن أن تُحذف دون أن يتأثر المعنى الذهني المجرد.

لكن لماذا كان للصورة هذا التأثير في المتلقي؟ بعيدًا عن الأمور الفلسفية والمنطقية والنفسية نوجز ما قرروه من شوق النفس وغوص الفكر وإجالة الذهن وطلقه وراء المعنى والمقصد، فتحدث اللذة والاستمتاع؛ فأصل المتعة التي تقدمها الصورة يرتد إلى نوع من التعرف على أشياء غير معروفة، ومن ثم نفهم رد عبد القاهر الإعجابَ بالمجاز إلى الجانب الفطري من النفس الإنسانية، وتلقفَ الرازي للفكرة وبسطَ عناصرها، وهو ما أطلق عليه (تلطيف الكلام)، وقصد به اللذة التي تحصل للنفس بمعرفة بعض وجوه الكلام، والألمَ الناتجَ عن حرمانها من معرفة وجوه أخرى، ولهذا عظُم أمر الصورة. (١)

إن الصورة تلفت الانتباه للمعنى، وتدفع إلى التفاعل معه، والتأثر به، والتفكر فيه، واستنطاق عناصر الصورة التي دلت عليه، وإثارة الخيال وتحريك الوجدان، ويتحقق ذلك بما تُحدثه الصورة من إبطاء إيقاع التقاء المتلقي بالمعنى؛ إذ تنحرف به إلى إشارات فرعية غير مباشرة، فينتقل من ظاهر المجاز إلى حقيقته، ومن

(١) ينظر: دلائل الإعجاز:٤٤٤، المحصول في علم الأصول:١/٣٣٦، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي:٣٥٧–٣٦٤، الصورة الشعرية في الخطاب البلاغي والنقدي:٢٠، الصورة البيانية وقيمتها البلاغية، د/ بسيوني عرفة رضوان:٢٥، التعبير البياني، د/ شفيع السيد:٥٥، من جماليات التصوير في القرآن الكريم، محمد قطب عبد العال:٥٥.

المشبه به إلى المشبه، خلال عملية الاستدلال التي يَنشط معها الذهن، فيتم الإقناع.(١)

يمكن الإفادة من بعض تلك الفوائد في سياقنا، لكن لا يمكننا مثلا أن نقر بأن حذف التشبيه في القرآن لا يتأثر به المعنى؛ لأنه في الكتاب المعجز"ليس عنصرًا إضافيًّا، ولكنه جزء أساسي". (٢)

وقد عني العلماء قديمًا وحديثًا ببيان خصائص التشبيه القرآني، مثل قربها، تنوعها، دقتها، صدقها، قوتها، روعة تأثيرها، جِدتها وإبداعها الذي بلغ الإعجاز، غلبة الحسية على المشبه به، عدم النص على وجه الشبه، تجاوزها حدود المادية بما تشعه من إيحاءات وظلال، شرف أغراضها وعظمة مقاصدها ...، لكنا لم نقف على محاولة تكشف عن أسرار التعبير القرآني المعجز حين يأتي بالمعنى مصوَّرًا بالتشبيه في سياق، ثم يأتي بالمعنى نفسه مجردًا من التشبيه في سياق آخر، وهذا ما نستعين بالله -تعالى- على فقه بلاغته، واللهُ وحده المستعان الكريم المنَّان.

---

(٣) ينظر: الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي:٣٦٣-٣٦٤، مصادر التفكير النقدي والبلاغي عند حازم القرطاجني، د/ منصور عبد الرحمن:٢١١.

(٤) من بلاغة القرآن، د/ أحمد بدوي:١٩٩. وينظر: خصائص التعبير القرآني:٢/٢٧٩-٢٩٢، التعبير الفني في القرآن، د/ بكري شيخ أمين:١٩٨-١٩٩.

المبحث الأول

الخروج من الأجداث

يتصل هذا المعنى بمشهد عظيم من مشاهد القيامة، وذلك يوم ينفخ في الصور النفخة الأخيرة، بعد نفخة الصعق التي تفني جميع الخلق، ثم يقوم الناس من قبورهم للحساب والجزاء.

وإن كانت الآيات في هذا المعنى كثيرة على إطلاق الخروج والبعث والنشور؛ إلا أننا سنركز على صورة الخروج من الأجداث بين التشبيه وعدم التشبيه؛ لأن كثيرًا من الآيات الكريمة لم تنص على (الأجداث)، بل تحدثت عن عمومية المعنى، وذلك مثل قوله تعالى:

-(يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا) الإسراء: ٥٢.

-(وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ۖ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا) الكهف: ٩٩.

-(وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ) الروم: ٢٥.

-(فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ) الصافات: ١٩.

-(وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ) الزمر: ٦٨.

-(وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ) ق: ٢٠.

-(يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ . إِنَّا نَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ . يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ) ق: ٤٢-٤٤.

-(فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ . فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ) النازعات: ١٣-١٤.

وقد ورد ذكر (الأجداث) في ثلاثة مواضع، هي:

١-قوله تعالى: (وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ) يس: ٥١.

٢-قوله تعالى: (فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ. خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ) القمر: ٦-٧.

٣-قوله تعالى: (يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ) المعارج: ٤٣.

ومن ثم سيقتصر التحليل على هذه الآيات الثلاثة، للنص فيها على (الأجداث)، وأنها محل الخروج بعد النفخة الأخيرة، ويتضح أن الآية الأولى ورد فيها المعنى خاليًا من التشبيه، وورد في الآيتين الأخريين بالتشبيه؛ مما يستدعي النظر والتأمل والتدبر.

إلماع إلى درس دكتور إبراهيم الهدهد:

درسَ شيخُنا فضيلة الأستاذ الدكتور إبراهيم الهدهد تنوعَ التشبيه في موضعي القمر والمعارج، وضَمَّ إليهما موضعًا آخر، هو قوله تعالى: (يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ) القارعة: ٤، وذلك تحت عنوان (تشبيهات انتشار الناس يوم القيامة)؛ فتم لفضيلته ثلاثُ سياقات أتت على سبيل التشبيه، ثم ذكر أن خروج الناس من القبور أتى بدون تشبيه في موضعين، الأول موضع سورة يس المذكور من قبل، والثاني في قوله تعالى: (وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ. مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ) إبراهيم: ٤٢-٤٣.

ودراسة شيخنا عُنيت بالوقوف عند مواضع التشبيه فحسب، وتوجيهِ تنوع التشبيه واختلافه من سورة لأخرى، ومن سياق لآخر، بخلاف موضوع هذا البحث، لكني أوجز هنا ما انتهى إليه شيخنا من سر تنوع التشبيه في المواضع التي وردت بالتشبيه؛ لأن ما سأذكره بعد ذلك في المقاربة بين موضعي التشبيه وموضع عدم

التشبيه قد يتعانق مع نظر وفكر شيخنا الدكتور الهدهد، وإن حدث ذلك –وأرجوه– فهو من فضل الله تعالى، وتمام نعمته.

وقبل ذلك أنبه إلى أنني سأتناول معنى محددًا هو (خروج الناس من الأجداث) بين التشبيه وعدم التشبيه، فاجتمع عندي ثلاث آيات كما تبين سابقًا، ولن أتناول موضع سورة القارعة لعدم النص فيه على الخروج من الأجداث؛ لتعدد مواقف يوم القيامة وغيبيتها؛ فكان اقتفاء ظاهر اللفظ أولى هنا وأسلم، أما شيخنا الدكتور الهدهد فدرس الآيات تحت عنوان (تشبيهات انتشار الناس يوم القيامة)، فأمكنه إدخال تشبيه سورة القارعة، لعدم تخصيصه المعنى بالخروج أو الأجداث، كما أمكنه إدخال موضع سورة إبراهيم مع موضع سورة يس فيما ورد بدون تشبيه، بخلاف ما هنا، فسوف يقتصر البحث على موضع سورة يس فيما ورد بدون تشبيه لِما ذُكر.

وقد وضع شخنا خيطًا جامعًا يلف به أسرار تنوع التشبيه فقال: " والناظر في كل مشبه به من هذه الصور وفي سياق كل تشبيه يتبين له بلا ريب أن هذا تصوير لمراحل متتالية ". [1] فالتشبيه بالجراد المنتشر في سورة القمر، يلي التشبيه بأنهم إلى نصب يوفضون في سورة المعارج، ويقع قبل موقف سورة القارعة الذي شُبه فيه بالفراش المبثوث.

وتبدأ مراحل المعنى بما ورد في تشبيه سورة المعارج (كأنهم إلى نصب يوفضون)؛ حيث أتى المشبه به مناسبًا لأقرب حال لهم، وهي حال تعبّدهم وإفاضتهم إلى أصنامهم في الدنيا، كما تعتبر هنا حال السائل في مطلع السورة الكريمة، فناسب أن يذكر أول مواقف الانتشار يوم القيامة بالصورة البيانية التي قربت بألصق الأمور بهم، وهي تعبدهم، ومقصودُ التشبيه هنا تقبيح الحالة التي يكونون عليها إن ظلوا على هذه الحالة القبيحة في العبادة، والصدود عن الحق والهدى، كما أن في التشبيه

([1]) أسرار تنوع تشبيهات القرآن الكريم: ٤٣٩.

استمالة لقلوبهم نحو الطاعة بما شاع فيه وفي السياق من روح السخرية والعظة والتهديد، فلمّا كان الأمر كذلك في هذه السورة على الإمهال ناسب أن يكون التشبيه بأول الأحوال. [١] يعني أنه لما كان الخطابُ لهم في الدنيا على ما هم عليه من كفر وعبادة للأصنام، وما زال أمامهم فرصة سانحة لقبول الهدى والإيمان، جاء التشبيه على وجه ينبيء عن مجرد السخرية من عبادتهم والتقليل من أصنامهم، والسخرية من حالهم، حتى يعودوا إلى رشدهم.

إن الصورة هنا ترتد من الآخرة إلى الدنيا مرة أخرى في سرعة، أو لِنَقُلْ إنه سياق يجمع الدنيا بالآخرة في لفق –وما أكثر ذلك في كتاب الله– فهو يبدأ بيوم خروجهم من الأجداث سراعًا في جانب المشبه (الآخرة)، وينتهي وهم إلى نصب يوفضون في جانب المشبه به (الدنيا)، والمشبه به هو محطُّ النظر والتأمل، " وكأن النهي عن إسراعهم إلى الأصنام هو المقصود بالنهي." [٢]

أما سورة القمر فالموقف فيها أشد، وسياق التشبيه سياق ذِكر اقتراب الساعة؛ فكان الملائم أن يسلي الله – تعالى– نبيَّه صلى الله عليه وسلم بذِكر صورة أشد من سابقتها في الخروج من القبور، فقد اشتد إعراض القوم هنا، والساعةُ قد اقتربت ولا اتعاظ، ولا تعقل، ولما كانوا بهذه الحال في السورة شُبهوا بحال مماثلة (كأنهم جراد منتشر) في الكثرة والتموج والتفريق والتدافع، ويذكر الفخر الرازي أنهم يصيحون كغوغاء الجراد يركب بعضهم بعضًا، وصفة التعاظل هذه مهمة في سياق هذا التشبيه، لأنها تحكم صفة التماسك في المشبه بعض الشيء، وهو تماسك نشأ عن الخوف الناشيء عن المفاجأة بالعذاب (الشيء النُّكُر)، فالدعوة إلى شيء نكر يناسبها خوف، وينشأ عن الخوف حركة تلائم الشيء النكر، وتلائم الكنايةَ الواصفة

---

(١) يراجع: أسرار تنوع تشبيهات القرآن الكريم: ٤٤٠-٤٤٤.

(٢) السابق: ٤٤٢.

التي وردت قبل التشبيه هنا (خشعا أبصارهم). فالتشبيه هنا يمثل مرحلة وسطى بين تشبيهي المعارج والقارعة، وقد وصل المعنى إلى قمة الشدة–أي شدة الضعف– في قوله تعالى: (كالفراش المبثوث)، تناسبًا مع مطلع السورة (القارعة) ونبرته العالية الخالعة للقلوب والمستأصلة لكل أمن، وقد وُصف الفراش بالبث دون الانتشار؛ لأن الانتشار فيه فضلُ تماسك لا يوجد في البث. وبذلك يكون تنوع التشبيه تبعًا لتنوع الموقف، وملاءمة لشدته. [1] وقد استعان شيخنا بسياقي الحال والمقال، وعلاقة المطالع بالمقاصد، في تقرير ما انتهى إليه، فجزاه الله خير الجزاء.

توجيه عدم التشبيه في سورة يس:

لعل سرّ عدم الإتيان بالتشبيه في قوله تعالى: (وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ) يس: ٥١، يُلمح من عدة أمور تتصل بمقصد السورة الكريمة، وكذلك بالسياقين القريب والبعيد، ويتمثل هذا السرُّ –والله أعلم– في أنَّ المعنى هنا غيرُ مفتقر إلى التشبيه؛ لأن الكلامَ متجهٌ إلى غرض جُعل السياق له، فطُرح ما سواه مما يُخل بالغرض.

وتفصيل ذلك أن الغرض من السورة بيان عاقبة القوم الذين صمموا على الكفر، وبالغوا في إنكار البعث، وأعرضوا عن الآيات التنزيلية والتكوينية، فآتاهم العذاب بغتة حين نفخ في الصور للنفخة الثانية التي يقومون فيها من قبورهم، فتحسروا على بعثهم ونشورهم لمَّا رأوه واقعًا محقَّقًا ثابتًا لا يمكن إنكاره. فتمثلت موجهات المعنى والأسلوب في:

إصرار القوم على الكفر – المبالغة في إنكار البعث – تحقق وقوع البعث

---

(1) ينظر: أسرار تنوع تشبيهات القرآن الكريم: ٤٥١–٤٥٤، التصوير البياني، د/ محمد أبو موسى: ٤٤–٤٥.

والموجهات الثلاثة بمعزل عن التشبيه وطَلَبِه؛ فالأصل في التشبيه أنه للبيان وكشف جانب أو جوانب مستورة من صفات المشبه، وإلحاقه بمشبه به يبرز هذه الصفات للمخاطب؛ لتحقيق فائدة، ولمَّا كان الخطاب لقوم أصروا على الكفر، وكان في عِلم الله أنْ حَقَّ عليهم الموتُ على الكفر ودخولُ جهنم (لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) يس: ٧؛ طُرح التشبيه من السياق، وورد المعنى غُفلًا منه، لأن التشبيه لا فائدة منه مع قوم صمموا على الكفر ورضوا به. وهذا المعنى ظاهر من مطلع السورة الكريمة وشائع فيها، قال تعالى: (لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ . إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ . وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ . وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) يس: ٦-١٠، فالآيات تقرر إصرارَ القوم على الكفر من طرق مختلفة، ربما لا نجد لها مثيلا في كتاب الله من حيث التصوير، أو الكثرة المتتابعة، أو التفنن في الإثبات والتقرير بين التمثيل والتصريح والإجمال والبيان.

فقد طال بالقوم الأمد، وامتدادُ المدة مفادٌ من قوله: (إنك لمن المرسلين)، ومن قوله: (ما أنذر آباؤهم)، حتى طبع على قلوبهم، وركنوا إلى الغفلة، وثبتوا عليها (فهم غافلون). وإذا حُكم عليهم بدوام الغفلة وثبوتها فلا حاجة إلى التشبيه الذي لا يفيد مع قوم هذا شأنهم.

وأرى –والله أعلم– أن المراد بالآباء هنا آباؤهم في الكفر والإصرارِ والجحودِ، فليس المقصود أبوة النسب؛ وعليه فالمعنى على جعل (ما) نافية أنَّ إنذارهم لن يفيد، فآباؤهم وإن أُنذروا فهم في حكم مَن لم يُنذَر؛ لانتفاء أثر الإنذار فيهم وبقائِهم على كفرهم وفي غفلتهم، ولذلك كان قوله تعالى: (إنك لمن المرسلين) في بؤرة السياق هنا، فوقع مُقسَمًا عليه مؤكَّدًا أشد تأكيد، والمُقسَمُ عليه مركز المعنى ومقصد النظر، فالرسول صلى الله عليه وسلم من جملة المرسلين الذين سبقوه، فآمن وصدَّق مَن كُتب له الهُدى، وكفر وكذَّب مَن كُتب له الضلال، وهذا المعنى يقرر إصرار القوم على

الكفر من جهة امتداد المدة عليهم بعد النظر في أحوال من سبقوهم نظرًا كان حريًّا أن يُفضي بهم إلى الإيمان؛ إذ "يجوز أن تكون العرب قد بلغتهم بالتواتر أخبار الأنبياء، فالمعنى لم يُنذَروا برسول من أنفسهم" [1]، ثم يتقرر معنى الإصرار وتقريعُهم عليه من اعتبار تكذيب الرسول تكذيبًا لجميع المرسلين، فيعظم الأمر، خاصة إذا لاحظنا بيانَ السورة الكريمة يؤكد على جمعية الرسل في أكثر من موضع، منها موضع الدراسة، يقول سبحانه: (قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ) يس: ٥٢، فلمَّا أذهلهم البعث تحسروا وسألوا عن الباعث، فأعرض النظم الحكيم عن جوابهم، وعدل إلى الأسلوب الحكيم، "وجِيء به على طريقة سِيئت بها قلوبهم، ونُعيت إليهم أحوالهم، وذُكِّروا كُفرَهم وتكذيبَهم، وأُخبِروا بوقوع ما أُنذِروا به" [2]، وتضمن الجواب صِدقَ المرسلين الذين أنذروهم قرنًا بعد قرن، بكلمة جامعة ثابتة، تكررت في آذانهم وآذان آبائهم، فما كان إلا الصدود والإعراض، ونرى الصدق مأتيًّا به في صيغة الماضي لتحققه، وزيادة في تبكيتهم وتقريعهم، وإمعانًا في إظهار حسرتهم.

ثم نرى في قصة أصحاب القرية تكرار (المرسلين) أربع مرات (الآيات: ١٣، ١٤، ١٦، ٢٠)، وقد سيقت القصة مثلا لإصرار القوم على الكفر أيضًا، فقد توالى عليهم الرسل، ونصحهم رجل من بينهم بأن يتبعوهم، حتى قيل إنه نصحهم حيًّا وميتًا، حيث حكى القرآن الحكيم بعد موته: (قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ . بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ) يس: ٢٦-٢٧، قال الزمخشري: "وإنما تَمنى عِلمَ قومه بحاله؛ ليكون

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٨/٥٤٥٠.

(٢) الكشاف: ٥/١٨٢-١٨٣.

علمُهم بها سببًا لاكتساب مثلها لأنفسهم، بالتوبة عن الكفر، والدخول في الإيمان والعمل الصالح المفضيين بأهلهما إلى الجنة." [١]

ويلاحظ أن النظم الكريم بدأ بتقرير أن الذي جاء أصحابَ القرية جمعٌ من المرسلين (إذ جاءها المرسلون)، ثم تُظهر الآيات بعد ذلك أن الرسل توالوا؛ اثنين أولا، ثم عُزِّزوا بثالث، وهذا دليلٌ على أن جمعية الرسل غرضٌ أصيل في السورة، وموجِّهٌ لكثير من معانيها وأساليبها الشريفة. لكن أصحاب القرية لم ينفعهم إنذار جمع من المرسلين، فأُهلكوا بصيحة واحدة فخمدوا كما تخمد النار، ولأن القصة مسوقة مثلا لكفار حق عليهم القول، أُتي في النظم هنا بألفاظ مماثلة لما في نظم أصحاب القرية (إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ) يس: ٢٩،(مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً) يس: ٤٩، (وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ) يس: ٣٢، (فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ) يس: ٥٣، فضلا عن ذكر (المرسلين)، فلما تشابهت أعمالهم دُلَّ في اللفظ على ذلك، وكانت العاقبة واحدة، بما فيها من فجأة وبغتة.

كان إصرار القوم على الكفر هو الموجهَ الأولَ للسياق الذي معنا وبناءِ نظمه ومعناه، وقد بينت ذلك في إيجاز، ويأتي الموجِّه الثاني (المبالغة في إنكار البعث) مؤسَّسًا على الأول؛ إذ خلص السياق في نهاية الحديث عن قصة أصحاب القرية، إلى أمر البعث في تخلص بديع ، وذلك في قوله تعالى: (أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ . وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ) يس: ٣١-٣٢، وهو تقرير لكثرة إهلاك القرون من قبلهم، وأنهم لا يرجعون، بما يفيد امتداد الأمد عليهم، وامتداد إصرارهم على الكفر، كما سبق بيانه، ثم يُفيد التخلصُ أن الجميع

---

(١) الكشاف: ٥/١٧٢-١٧٣.

مُحضرون يوم القيامة إلى المحشر بعد بعثهم، ثم كثرت الآيات بعد ذلك لبيان أن أمر البعث يسيرٌ على الله تعالى.

بالغ القوم في إنكار البعث، كما بالغوا في إصرارهم على الكفر، وكما نقلت السورة الكريمة دلائل هذا الإصرار، أثبتت دلائل الإنكار وتصلُّبَهم فيه، عن طريق إيراد بعض البراهين على قدرة القدير -جل شأنه- على البعث (وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا) يس: ٣٣-٣٦، (وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ) يس: ٣٧، (وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرّ لَّهَا) يس: ٣٨-٤٠، (وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ) يس: ٤١-٤٤، لكنهم صدوا حسب عادتهم حين أمروا بالتقوى، وأعرضوا عن آيات ربهم التنزيلية والتكوينية (وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَة مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ) يس: ٤٦، و(من) الأولى لتأكيد العموم، والثانية تفيد التبعيض، وإضافة الآيات إلى ربنا سبحانه تفيد تفخيمَها والتهويلَ مما اجترءوا عليه في حقها. [1] والتعبير بقوله: (كانوا عنها معرضين) دون، إلا أعرضوا مثلا؛ " للدلالة على استمرارهم على الإعراض حسب استمرار إتيان الآيات". [2] فحالهم محصور في الإعراض، أو بالأحرى الاستمرار عليه.

وتأتي نهاية السورة مشتملة على استئناف يثير الإنكار والتعجيب من حال إنكار البعث (أَوَ لَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَة فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ) يس: ٧٧-٨٣، إذ كيف ينكرون وفي أنفسهم وخَلقهم شاهدٌ على ذلك، بعد ما سيق لهم من آيات كونية تؤيد البعث وتثبته، فنهاية السورة تقرر أمرَ استمرارهم على إنكار البعث؛ لأنهم عَموا عن الشواهد الكونية والدلائل النفسية، وهذا يتعانق مع أمر إصرارهم على الكفر الذي بدأت السورة بتقريره، وكما ورد ذلك في معان مختلفة وأساليب متنوعة، كذلك كان بيانُ أمر إصرارهم على إنكار البعث، بما يشعر أنه لا رجعة لهم عن غيهم، فقد "قبح

---

(١) ينظر: إرشاد العقل السليم: ٣٠٢/٥.

(٢) السابق.

الله –عز وجل– إنكارَهم البعثَ تقبيحًا لا ترى أعجبَ منه وأبلغَ، وأدلَّ على تمادي كُفر الإنسان وإفراطه في جحود النعم وعقوق الأيادي، وتوغله في الخسة، وتغلغله في القِحَة." [١] وانظر إلى (فإذا هو خصيم مبين) بصيغة المبالغة الدالة على شدة الخصومة والجدال بالباطل، واسمية الجملة الدالة على ثبوته ودوامه على الخصومة، وانظر قبلُ إلى معنى المفاجأة المفاد من (فإذا)، "ووجه المفاجأة أن ذلك الإنسان خُلق ليعبد الله، ويعلمَ ما يليق به، فإذا لم يجر على ذلك فكأنه فاجأ بما لم يكن مترقبًا منه." [٢]

ورتب الزمخشري وأبو السعود المفاجأة على كونه مخلوقًا من أخس الأشياء وأمهنها، أي فإذا هو شديدُ الخصومة، قادرٌ على الخصام، مُعربٌ عما في نفسه فصيحٌ، بعد ما كان خسيسًا مَهينًا. [٣] وهذا الترتيب أبلغُ في التعجيب والتوبيخ والإنكار. وإنسانٌ هذا شأنه في الإصرار والعناد والجهل بحال نفسه، لا يفيد معه ضرب التشبيه في قوله تعالى: (ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون)؛ لأنه قد حق عليهم القول.

أما ضرب المثل في نهاية السورة وما يمكن أن يعترض به على أنه قد شُبِّه لهم أمرُ البعث بما ذُكر؛ فيُرد بأنه واردٌ على سبيل التعجيب والتوبيخ والتقبيح، لا على سبيل البيان والإقناع، واستشعِرْ غضبَ العليّ القدير في قوله: (وضرب لنا مثلا ونسي خلقه)، بما فيه من مفارقة تجمع بين خَلق هذا الخسيس الحقير، وعظمة العلي القدير المقتدر. فهل بعد ذلك يُؤتَى له بتشبيه يكشف عن صورة خروجه من الأجداث، وبعثه من القبور، ودَفعُه إلى ربه للجزاء والحساب؟! إن السياق يمنع ذلك ويأباه.

---

(١) الكشاف: ١٩٥/٥.

(٢) التحرير والتنوير: ٧٤/٢٣.

(٣) ينظر: الكشاف: ١٩٦/٥، إرشاد العقل السليم: ٣١٣/٥.

ويبقى من الموجهات الثلاثة للمعنى والأسلوب (تحقق وقوع البعث)، أو (البغتة)، فالسياق في الزمن الماضي، والحديث عن نَفخٍ في الصور قد وقع (ونُفخ في الصور) النفخة الثانية، وبُعث الناس من قبورهم فجأة، بالنظر إلى موقع الفاء وإذا، وهم يمشون مشيًا سريعًا فيه إجبار، ويستمر التعبير بالماضي لتقرير حقية البعث وانتهاء الأمر(قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا)، إنه قولهم يتضمن حسرة واعترافًا بالبعث بصيغة الماضي، ثم تأتي الإشارة في مطلع جوابهم صادمةً كاشفة (هذا ما وعد الرحمن) والإشارة في الأصل تكون لواقع محسوس، واسم الرحمن يطل على قوله تعالى: (إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ) يس: ١١، (قَالُواْ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ) يس: ١٥، وقوله سبحانه –بعد تعداد نعمه وآياته الدالة على البعث–: (وَإِن نَّشَأۡ نُغۡرِقۡهُمۡ فَلَا صَرِيخَ لَهُمۡ وَلَا هُمۡ يُنقَذُونَ . إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ) يس: ٤٣-٤٤، أي كان يجب عليهم أن يتعظوا بما وعد به الرحمن، ويخافوا عقابه وهو غائب عنهم لمَّا يأتهم، أما وقد تحقق ووقع، فهو هو من الرحمن، فكأن في اسم الرحمن تبكيتًا لهم على غيهم وعنادهم واستكبارهم وظلمهم أنفسهم، إذ كيف لا يقبلون إنذار مَن هذا اسمه وصفته، ولا يخشونه قبل القدوم عليه؟!

وأتت طريقة الجواب في قوله: (هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون) متسقة مع غرض تحقق وقوع البعث هنا؛ فقد "عُدل به عن سَنن سؤالهم تذكيرًا لكفرهم، وتقريعًا لهم عليه، وتنبيهًا على أن الذي يهمهم هو السؤال عن نفس البعث ماذا هو، دون السؤال عن الباعث."[1] وهذا من الأسلوب الحكيم الذي يُواجَه فيه السائل بغير ما يترقبه، بتنزيل سؤاله منزلة غيره، تنبيهًا على أنه الأولى، فقد حصل التبكيت في الجواب من عدة

([1]) إرشاد العقل السليم: ٥/٣٠٤.

جهات: العدول عن جواب سؤالهم، ذكر اسم الرحمن، تقرير صدق المرسلين، حيث قررت السورة جمعيتهم كما سبق.

ويمضي السياق بعد ذلك في تقرير تحقق الوقوع الذي لا يجدي معه تشبيه، مثل قوله تعالى: (إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ . فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ . إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ) يس: ٥٣-٥٥، (وَٱمْتَٰزُواْ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ) يس: ٥٩، (هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ . ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ . ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ) يس: ٦٣-٦٥.

بذلك يتبين أن السياق هنا بمعزل عن التشبيه وطلبه؛ لأن الحديث عن قوم أصروا على الكفر وحقت عليهم كلمة العذاب، كما بالغوا في إنكار البعث خاصة – وهو محط السياق الذي ندرسه–، فضلا عن أن الآيات سيقت في بيان تحقق وقوع الساعة والبعث والحساب، وسياق هذا شأنه لا يتطلب تشبيهًا لمشهد خروجهم من الأجداث؛ لأنه واقعٌ يشاهدونه حينئذ، فلا يحتاج بيانًا يقرب صورته ويكشف صفتَه، والله أعلم.

ويمكن تأويل عدم الإتيان بالتشبيه في مواضع أخرى بمثل هذا من تحقق الوقوع، وإن لم يكن في تلك المواضع ذكر للأجداث وتعيين لها، مثل قوله تعالى: (فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ) الصافات: ١٩، (وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ) الزمر: ٦٨، (وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ) ق: ٢٠، (يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ . إِنَّا نَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ . يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ) ق: ٤٢-٤٤.

توجيه الإتيان بالتشبيه في سورتي القمر والمعارج:

الظاهر والأقرب في سر الإتيان بالتشبيه في هذين الموضعين أن يُؤول بضد ما ظهر في سياق سورة يس، أي يكون الزمن الحاضر الذي سيقت فيه الآيات هو مكمن السر؛ فما زالت الدنيا قائمة، وما زالوا يسألون عن موعد الساعة والعذاب، فكان للتشبيه فائدة لمناسبته الغرضَ، من التذكير والوعظ، والتخويف والتهديد الباعثين إلى الإيمان والهدى، والارعواء عن الكفر والضلال، حينما يُعملون عقولهم في صورتين يشهدون مكوناتهما كل حين (كأنهم جراد منتشر)، (كأنهم إلى نصب يوفضون)؛ لعلهم يأنفون ويستقذرون من صنيعهم، بما سيق إليهم في صورة التشبيه المنفرة مما هم عليه؛ ولهذا لا يقتصر غرض التشبيه هنا على المشبه وهو هيئة خروجهم من الأجداث ساعة البعث، من تقبيح المشبه في المعارج، وبيان حاله في القمر، كما عند شيخنا الدكتور إبراهيم الهدهد، لكنه يتعدى ذلك إلى المشبه به الذي قُصد أن يكون مما يتصل بهم اتصالا وثيقا (الجراد، النُّصُب)؛ لأن المقصود الأعظم ما زال هو التذكير والوعظ، وبيانُ استئناف التيقظ، في سياق دنيوي يتحقق بذكر ما يفيده من الجراد والنُّصُب، وبمجرد صك آذانهم بالمفردتين وتخيل الصورتين، يدركان أنهما في الدنيا، وفي ذلك نهاية الإعذار، وغاية التبكيت والإلهاب.

ويؤازر ما قررته من غرض التشبيه ما نقله شيخنا الدكتور الهدهد عن صاحب صفوة التفاسير من أن التشبيه في سورة المعارج تهكم بهم، وتعريض بسخافة عقولهم، إذ عبدوا ما لا يستحق العبادة. وكذلك ما نقله عن صاحب التحرير والتنوير من أن في التشبيه إدماجًا لتفظيع حالهم في عبادة الأصنام، وإيماء إلى أن إسراعهم يوم القيامة إسراع دع، ووقع جزاء على إسراعهم للأصنام.[1] فترى الأمر يتجاوز مجرد بيان حال المشبه؛ لأنهم في الأصل كفروا وأنكروا البعث وكل ما يترتب على ذلك من مشاهد ومواقف، ومن ثم

([1]) ينظر: أسرار تنوع تشبيهات القرآن الكريم: ٤٤١.

يكون غرض التشبيه العائد على المشبه –مع قوم هذا حالهم– في مثل هذا، غير وافٍ بالمقصود، وغيرُ متسق مع السياق العام.

وسياق الحال في السورتين يفضي إلى التشبيه ويطلبه طلبًا يفارق سياق سورة يس.

سياق سورة القمر:

إن مطلع سورة القمر يقرر اقتراب الساعة؛ "للاهتمام بالموعظة" [١]، فهي لم تقم بعدُ، ويتصل هذا الاقتراب بما في نهاية سورة النجم (هَـٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ) النجم: ٥٧، فالزمن حاضر، والدعوة قائمة، وثمة أمر بالسجود والعبادة، والحديث هنا عن آية يُرجَى بها إيمانهم، لمعاينتهم لها، لكنَّ حالهم حالُ إعراض متجدد دائم، ورميٍ بالباطل، (وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ) القمر: ٢، ولاحظ التعبير بالمضارع في ثلاثة أفعال متتالية، تأكيدًا على مشهد الحضور الدنيوي في السياق، فما زالوا يرون ويشاهدون الآيات الدالة على صدق النبي صلى الله عليه وسلم تلو الآيات، وما زالوا يعارضون، ويتهمونه بالسحر، وهو سحر مستمر أي دائم مطرد، أو قوي مستحكمٌ ، أو اشتدت مرارته مستبشَع عندنا، أو ذاهب يزول ولا يَبقى، إنهم يُمنُّون أنفسهم بزوال أمر النبي الأمين، وكل هذه المعاني التي يثيرها وصف (مستمر) تثبت لهم حضورًا قويًّا، وبقاءً مستمرًّا في اللدد، وأملًا في علوّ كلمتهم، لكن يأتيهم ما يُقنطهم (وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ) القمر: ٣، والماضي هنا للدلالة على أن ذلك عادتهم [٢]، والحكمُ بأن كل أمر مستقر فيه إرجاءٌ لهم إلى مستقبل قريب، يشهدون فيه ظهورَ أمر النبي والإسلام والمسلمين، وثباتَ الحق

---

(١) التحرير والتنوير: ١٦٨/٢٧. كما قرر الطاهر أن قوله تعالى: (وانشق القمر) خبر مستعمل في لازم معناه وهو الموعظة؛ لأنهم على علم بالانشقاق، فالمقصود أنهم بحاجة إلى التذكير بأن من أمارات حلول الساعة أن يقع خسف في القمر. ١٧١/٢٧.

(٢) ينظر: تفسير البيضاوي: ٤١٩/٤ بهامش حاشية زادة.

ورسوخَه، كما يتيقنون ساعتها من دحض أمرهم وإزهاق باطلهم وخذلان ما يعبدون، لاحظ أنّ كل ذلك سيكون في المستقبل، وأن الحديث هنا عن حاضر وواقع يطلب التشبيهَ بعد ذلك.

وقارِن حالَ القوم في هذا المطلع بما في مطلع سورة يس، يتبين لك ما أرجو أن أكون هُديتُ إليه، القومُ في مطلع سورة يس ليس لهم صوتٌ، حق القول عليهم، في أعناقهم أغلال، وهم مقمحون، وضُربت عليهم السدود من كل جانب، فهم في غشاوة لا يبصرون، إلى آخر هذه المعاني التي تفيد أن القوم ليس لهم وجود ولا حضور ولا قول، بخلاف ما هنا؛ فقد انشق القمر، وكان آية عظيمة بينة، فكان للقوم بيانٌ ومنطقٌ وجدال وأفعال (يروا ، يعرضوا، يقولوا، كذبوا، اتبعوا)، إنَّ القوم في يس مفعول بهم، مقهورون مغلوبون من أول السورة إلى نهايتها، وهنا في القمر لهم نوعُ حضور وبيانٌ؛ فقد نزلت لمَّا سأل أهلُ مكة النبيَّ صلى الله عليه وسلم آيةً، فانشق القمر فنزلت، وكذلك في المعارج التي بُدئت بالسؤال، والسائل فاعلٌ وحاضرٌ وطالبٌ؛ مما استدعى التشبيهَ في الموضعين دون يس.

ولمَّا كان السياق في الزمن الحاضر، والمقصودُ الموعظةَ، اشتملت السورة الكريمة على أنباء الأمم الخالية، مما فيه ردعٌ لهم عن كفرهم وإعراضهم، (وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّنَ ٱلۡأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزۡدَجَرٌ) القمر: ٤، وقد أُجملت الأنباء هنا، ثم فُصِّلت بعد ذلك بذكر قوم نوح وعاد وثمود ولوط وفرعون، وهذا موطن اختلاف بين سورة القمر وسورتي يس والمعارج، فذِكرُ تلك الأمم استدعى التشبيهَ أولًا، ثم كان في خصوصية التشبيه بالجراد المنتشر تناسبٌ مع تفصيل شيء من قصصها؛ فإن وجه الشبه هو الكثرة والتموج والتفريق في الأقطار على حد عبارة أبي السعود، وهو ما يناسب كثرةَ تلك الأمم وتفرقَها في أقطار الدنيا، فهم يُحشَرون يوم البعث من كل مكان، على كثرتهم واختلافهم، ويخرجون من قبورهم نحو المحشر في صورة الجراد المنتشر،

ولذلك أتى الاستئناف البيانيُّ في قوله: (كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ) القمر: ٩، بعد تمام التشبيه ولواحقه، بما يوميء إلى هذا السبك العجيب.

وقد نقل الإمام البقاعيُّ عن الإمام أبي جعفر ابن الزبير شرحًا طويلًا لمناسبة إيجاز قصص الأولين هنا لغرض السورة الكريمة، يتلخص في أن الحكمة بلغت غايتها التي لا خلل فيها، بما نزل عليهم من آيات، وما شاهدوه من معجزات، وما قُصَّ عليهم من أخبار بالتفصيل في سور أخر (الأعراف، هود، المؤمنون، الشعراء، الصافات)؛ فانقضى ذكر القصص هنا، ولم يتعرض لها مستوفاة على المساق فيما بعد إلى آخر الكتاب؛ لأن السورة انقطاع للحجة بما تقدم، فإنك تلمح في قصص السور الأخرى تلطفَ الاستدعاء والموعظة، والإشفاق والاستعطاف، والتوبيخ والتعنيف، وبيان عظيم الإفك والافتراء، وشيئًا من الوعيد والتهديد، لكن هنا في القمر محلَّ الغضب وشدة الوعيد؛ لأنّها إنباءٌ بكمال المقصود من الوعظ، فتبين لهم أن لا فرق بينهم وبين غيرهم من الأمم، فلا يغرهم عظيمُ حلمه سبحانه، فهذه السورة إعذار عند تبكيتهم وانقطاع حجتهم بما تقدم. [1] فغرض الوعظ ما زال قائمًا، وإن بلغ غايتَه وكماله وقوته، مما وجَّه السياقَ نحو طلب التشبيه.

وما زال القرآن يخاطبهم خطاب التذكير والوعظ عقب كل قصة (وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ)، وفائدة التكرير "أن يجددوا عند استماع كل نبأ من أنباء الأولين ادكارًا واتعاظًا، وأن يستأنفوا تنبُّهًا واستيقاظًا، إذا سمعوا الحثَّ على ذلك والبعثَ عليه، فلا يغلبهم السهو ولا تستولي عليهم الغفلة". [2] وقرر أبو السعود أن هذه الجملة القسمية تكررت عقب كل قصة تقريرًا لمضمون قوله تعالى: (ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر)، وتنبيهًا على استقلال كل قصة بإيجاب الادكار وكفاية

---

(١) ينظر: نظم الدرر: ٧/٣٤٢-٣٤٥.

(٢) الكشاف: ٥/٦٦٢ بتصرف.

الازدجار. [1] فما زال القوم في الزمن الذي يمكنهم من الإقبال على القرآن، الذي يسره الله تعالى بعظمته وعلمه وقدرته، لكل طالب للعظة والاهتداء، بما فيه من المواعظ، وما صُرِّف فيه من الآيات، والوعد والوعيد، وقصص الأمم السابقة، التي تنبئهم بشر عاقبة الكفر، ولذلك عقبت الآيات بقوله تعالى: (أكفاركم خير من أولئكم) توبيخا على هذا الكفر، فهم مثل السابقين في الكفر والعناد، والعاقبة واحدة، والعاقل من أدرك نفسه واتبع الهدى (فهل من مدكر). ووصفُ الكُفَّار هنا يرشد إلى أن المقام في الدنيا، والغرض التهديد والصرف عن الكفر إلى الإيمان؛ ولذلك كان للتشبيه مكان.

سياق سورة المعارج:

مطلع سورة المعارج يبدأ بالسؤال عن العذاب، فما زال القوم يجادلون، ويُؤمَر النبي صلى الله عليه وسلم (فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا . إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا . وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا) المعارج: ٥-٧، (فَذَرۡهُمۡ يَخُوضُواْ وَيَلۡعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ) المعارج: ٤٢. والخوض واللعب المتجددان يعكسان شعورَهم بامتداد الأمد، مما أطمعهم، (أَيَطۡمَعُ كُلُّ ٱمۡرِيٕ مِّنۡهُمۡ أَن يُدۡخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٖ) المعارج: ٣٨، ولاحظ اتساق هذا الامتداد وهذا الطمع مع قوله سبحانه: (تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ) المعارج: ٣، حيث صُوِّر مقدارُ صعودِ الملائكة وجبريل-عليهم السلام- إلى الله -تبارك وتعالى- في يوم، بأن غيرهم من الخلق يصعده في خمسين ألف سنة، يقول الطبري: "يقول: كان مقدار صعودهم ذلك في يوم لغيرهم من الخلق خمسين ألف سنة، وذلك أنها تصعد من منتهى أمره من أسفل الأرض السابعة، إلى

([1]) ينظر: إرشاد العقل السليم: ١٦٨/٦.

منتهى أمره من فوق السموات السبع." [١] ولذلك ترتب على هذا الامتداد أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالصبر الجميل، " يعني: صبرًا لا جزع فيه. يقول له: اصبر على أذى هؤلاء المشركين لك، ولا يُثنيك ما تَلقَى منهم مِن المكروه عن تبليغ ما أمرك ربُّك أن تبلغهم من الرسالة." [٢]

فما زال القوم في فسحة بلا ريب، وفي طور الدعوة والإنذار، وإن اقترب أمر العذاب؛ إذ كانت سورة المعارج من أواخر ما نزل بمكة، فقد نزل بعدها بمكة خمسُ سُوَرٍ فقط، ولعل هذا كان إيذانًا بعذاب الدنيا، مِن القتل الذي استحرَّ فيهم بعد الهجرة، وأَمْرِ النبيِّ الكريمِ والمؤمنين بالقتال.

وأرى أنه كما كان لذِكر أنباء الأمم الماضية –في سورة القمر– سببٌ في إيراد التشبيه بالجراد المنتشر، فإنَّ لذِكر أحوال المؤمنين وصفاتهم هنا (إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ...) المعارج: ٢٢–٣٥، سببًا في إيراد التشبيه بأنهم إلى نُصُبٍ يوفضون، وكأنَّ في هذا التشبيه تعريضًا بالباطل الذي أجهدوا أنفسهم فيه طول حياتهم، مقابَلًا بالحق الذي كان ينبغي أن تُوَجَّه طاقاتهم إليه، مُمَثَّلا في بعض فروع الشريعة التي تُليت عليهم في الآيات ٢٢–٣٥، فالتشبيه يُجمل سعيهم وإفاضتهم وسرعتهم بأن ذلك كله كان إلى الباطل، إلى أنصاب عبدوها من دون الله، ففسدت عقيدتهم، وبطل سعيهم، وضلت أعمالهم، فما صلوا، وما أدوا حقوق أموالهم، وما صدقوا بيوم الدين، وما حفظوا فروجهم، وما راعوا أمانة ولا عهدا ...، فكان ذكر أحوال المؤمنين مدعاة لإيراد

---

(١) جامع البيان: ٦٠١/٢٢. وهو الوجه الأول للمعنى عنده وعند ابن كثير، واختار الدكتور إبراهيم الهدهد الوجه الثاني عند الطبري والرابع عند ابن كثير، وهو يوم القيامة، وبنى عليه توجيه تنوع التشبيه ومغايرته لما في سورتي الحج والسجدة (ألف سنة). ينظر: تنوع تشبيهات القرآن الكريم: ٤٦٤–٤٦٧، تفسير ابن كثير: ٢٣٥/٨–٢٣٦.

(٢) السابق: ٦٠٣/٢٢.

التشبيه بهذه الخصوصية في المشبه به، لتذكيرهم وبيان فساد ما هم عليه، وفي الإفاضة كشف عن عظيم الجهد الذي يبذله القوم في الباطل، "قيل: كانوا يبتدرون إذا طلعت الشمس إلى نُصُبهم التي كانوا يعبدونها من دون الله لا يلوي أولهم على آخرهم" [1]؛ فهم في همة ونشاط في المسارعة إلى الباطل والشرك، وفي غفلة عن الحق والهدى ومواضع الهمة الحقة.

ولذلك ورد التشبيه ابتداءً لأنه يُرجَى منهم الاتعاظ، والإقلاع عن الشرك، ومفارقة الباطل، فما زالوا في الزمن الحاضر، بدليل الأفعال (فذرهم، يخوضوا، ويلعبوا، حتى يلاقوا، يوعدون، يخرجون)؛ فكان للتشبيه مقتضى وهو تفظيع حالهم التي هم عليها من الشرك والهمة والنشاط في عبادة الأصنام، والمسارعة إلى ذلك.

ولعل مما يرشد إلى هذا الفهم من الربط بين التشبيه وبيان أحوال المؤمنين، هو اتساق الآيات في الفواصل التي بُنيت على الواو والنون غالبًا – وهذا بابٌ آخر من الإعجاز–؛ إذ استمرت الفواصل على النسق الصوتي ذاته، إيماء إلى أن التئام المعاني واتصالها في زمن واحد، هو الزمن الحاضر؛ فأحوال المؤمنين المذكورة دالة على التكليف والتكريم، ثم يأتي الاستفهام الإنكاري عن سبب اجتماع المشركين حول النبي –صلى الله عليه وسلم – (فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ) المعارج: ٣٦، حيث كانوا يستمعون إليه ويكذبونه ويستهزئون بالمؤمنين، ويقولون: لئن دخل هؤلاء الجنة كما يقول محمد فلندخلنها قبلهم، وهذا سياق دنيوي حاضر، وجاء الرد على طمعهم في دخول الجنة وتأييسهم من ذلك، مدمجا فيه إثبات البعث وقدرة الله تعالى، ثم تفرع عن ذلك (فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ) المعارج: ٤٢، وأُتي بالتشبيه، كل ذلك في سياق متصل بذكر أحوال المؤمنين، والرد على طمعهم في دخول الجنة، فبين التشبيه بُعدَ ذلك لإقامتهم على الباطل، مقارنة بأحوال المؤمنين الذين يستحقون أن يكونوا (في

([1]) حاشية زادة: ٤/٥٤٨.

جنات مكرمون). فإيراد السياق على فواصل متسقة يؤكد على حاضرية الزمن، مما استدعى التشبيه وطلبه.

و(النُّصُب) في بؤرة التشبيه ومركزه، وهي مجمع غرضه فيما أحسب، ولعل تقديمها مع الجار يؤكد ذلك، وبذلك يتجاوز غرضُ التشبيه حدَّ بيان حالة خروجهم من الأجداث يوم البعث، وكذلك مجرد تقبيح صورتهم وخروجهم -كما قرره د/ الهدهد-؛ لأنهم منكرون في الأصل، فلا يعنيهم ذلك كله، ولذلك أرى أن غرض التشبيه هنا يتصل بالمشبه به، وهو تقبيح عبادتهم وأنصابهم، انتهاء إلى دعوتهم إلى اتباع الحق والهدى، قبل أن يتحقق هذا الموعود.

وأخيرًا فقد تبين تغاير سياق سورة يس وسياقي سورتي القمر والمعارج، وخاصة ذكر أنباء الأمم الماضية في القمر، وذكر أحوال المؤمنين في المعارج، وهو ما لم يرد في يس، بعد أن تقرر أن موجهات المعنى والأسلوب في سورة يس تمثلت في: إصرار القوم على الكفر، المبالغة في إنكار البعث، تحقق وقوع البعث، والموجهات الثلاثة بمعزل عن التشبيه وطَلَبِه؛ بخلاف ما أرشد إليه سياقا القمر والمعارج؛ فالزمن حاضر، والدعوة قائمة، فخُوطب القوم خطابَ التذكير والوعظ؛ مما اقتضى التشبيه.

مسلك النظم القريب في الآيات:

بعد أن عرضنا السياق العام للمواضع الثلاثة الشريفة، وتبين تناسب التشبيه مع سياقي القمر والمعارج، وعدم طلبه في يس لتنافيه مع سياقها؛ نقصد هنا إلى السياق القريب في المواضع الثلاثة، ومسلكِ النظم الشريف فيه، من حيث مفرداته وبناء تراكيبه التي تؤدي إلى استدعاء التشبيه أو عدمه.

ولعل ذلك النظر يدخل في الوجوه الشتى والأنحاء المختلفة التي أطلقها الإمام عبد القاهر، ولم يجعل لها حصرًا، في ترسيخه فكرة "ليس من فضل ولا مزية إلا

بحسب الموضع، وبحسب المعنى الذي تريد والغرضِ الذي تَؤمُّ" [1]؛ فليس إذا راقك التنكير في موضع أو مواضع، أن يروقك دائمًا وفي كل موضع، لكن الأمر مبنيٌّ على (التخيُّر) والتدبر في المعاني والأغراض، وما تتطلبه من التراكيب وبنائها بناءً يتسق مع مقادير المعاني والأغراض، وبذلك "تتحد أجزاء الكلام، ويدخل بعضها في بعض، ويشتد ارتباط ثان منها بأول، وتُوضَع الجملة في النفس وضعًا واحدًا، ويكون الحال فيها حالَ الباني يضع بيمينه ههنا، في حال ما يضع بيساره هناك، وفي حال ما يُبصَر مكانٌ ثالثٌ ورابعٌ يوضَعان بعد الأولين". [2]

ولا ريب أن نظم القرآن هو النمط العالي في هذا الباب؛ لأن الله –تعالى– أعجز به الجن والإنس، فاتحدت جُمَله وتراكيبه وجميعُ أجزائه، ووُضعت وضعًا واحدًا، لا تقف فيها على نبوٍّ أو تنافر، مما يبعث على النظر والتدبر لكشف العلاقات، وبيان المناسبات، وأنَّ وَضعَ الكلام هنا اقتضى التشبيهَ أو اقتضى عدمَ الإتيان به، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، وهو مما يحتاج إلى صبر وطول نظر؛ لأن شدة التداخل والاتحاد بين أجزاء الكلام قد تُخفِي تلك العلاقات والروابط والمناسبات، مَثَلُ ذلك مَثَلُ النَّسج المتقن الذي تداخلت خيوطه، وامتزجت لحمته وسداته، وصار في مجمله في غاية الصنعة والدقة والجمال، لكن لا يتيسر الوقوف على دقائقه وتفاصيل صنعته، ولا تمتاز خيوطه.

مسلك النظم في سورة يس:

نقف هنا على بناء النظم في سياقه القريب لإبصار حركة المعنى وسريانه، واختلافها من موضع لآخر تبعًا لاختلاف المقاصد والأغراض؛ ولذلك تتنوع أحوال التراكيب تبعًا لهذا الاختلاف، وبذلك تكون التراكيب هي السبيل إلى فقه حركة المعنى،

---

(1) دلائل الإعجاز: ٨٧.

(2) السابق: ٩٣ بتصرف.

وكلما شرف الكلام ونبل استغلقت أسراره [١]، فضلًا عن بلوغه درجة الإعجاز، وإيرادُ التشبيه أو عدمُ إيراده في الكلام من أقوى الدلالات على المعنى والمقصد والغرض.

يبدأ النظم بالزمن الماضي الدال على تحقق الوقوع (ونفخ)، مبنيًّا لما لم يُسمَّ فاعله، والجملة هنا مستقلة ومنفردة، باعتبار أن الواو للاستئناف بذكر حالهم في النفخة الثانية؛ تقريرًا لحقية البعث، بعد ذكر حالهم في النفخة الأولى، وهي صيحة الإماتة التي تهلكهم جميعًا، وقد سيطرت السرعة على المعنى في الحالين، ومن مظاهر ذلك في النفخة الأولى العطف بالفاء في قوله تعالى: (فلا يستطيعون توصية)، كما تلمح السرعة من تنكير (توصية)، مع إفادة العموم لهول الخطب وشدته وسرعته، فلا يقدرون على أي توصية ولو بكلمات يسيرة، وإذا لم يستطيعوا ذلك فهم أعجز عما يتطلب زمانًا طويلًا، مثل أداء الواجبات وردِّ المظالم؛ وبهذا يتبين أن الصيحة المميتة لا تهملهم في شيء ما. [٢] ثم ما فيه من "كناية عن شدة السرعة بين الصيحة وهلاكهم" [٣]، إن الصيحة إذا وقعت لن يستطيعوا توصية بشيء إذا كانوا في أهلهم، ولا يمكنهم الرجوع إليهم إذا كانوا خارج بيوتهم؛ لأنهم سيهلكون مكانهم بغتة.

قلت إن جعل الواو للاستئناف يجعل الجملة مستقلة منفردة خاطفة سريعة، تناسب الغرضَ والمقامَ؛ لأن السياق العام يكشف انقضاء الأمر، وأن ليس ثمة إرادة للقوم، كما سبق تفصيله، فالزمن الماضي الذي بُدئت به الآية يتسق مع السياق العام، وكُلٌّ من ماضوية الزمن وسرعة الأحداث يمنعان من إيراد التشبيه؛ لأنه لن

---

(١) ينظر: حركة المعنى في سورة الفجر، د/ إبراهيم الهدهد: ٧-١٢.

(٢) ينظر: حاشية زادة: ٤/١٣٤-١٣٥.

(٣) التحرير والتنوير ٢٣/٣٥. وعبارة ابن عطية: "عبارة عن إعجال الأمر". المحرر الوجيز: ٤/٤٥٧.

يجدي مع الماضي، وسيعمل على مطل الزمن في سياق تتسارع فيه الأحداث، وبذلك نفهم أيضًا بناء الفعل لما لم يُسمَّ فاعله.

وكذلك الأمر إذا كانت الواو للحال، والتقدير "ما ينظرون إلا صيحة واحدة وقد نفخ في الصور" [1]، وكأن النفخة الثانية قد وقعت بمجرد انتظارهم للنفخة الأولى، فالزمن بينهما في غاية القرب، والأمر في غاية السرعة والبغتة، بل أقول كأن النفخة الثانية قد وقعت بمجرد سؤالهم –على سبيل الاستهزاء والإنكار والاستبعاد–: (متى هذا الوعد)؛ لأن قوله: (ما ينظرون ...) هو جواب سؤالهم، فيكون قوله: (ونفخ في الصور) داخلًا في حيز الجواب، باعتبار أن الواو للحال، وإن كنت أرى أن اعتبارها للاستئناف أليق بالنظم الشريف.

ويتسق حذفُ الفاعل مع السرعة واقتصاد الزمن والتركيز على الحدث، كل ذلك بعد العلم به وأن ليس لذكره تعلق بالغرض.

ثم تأتي فاء العطف الدالة على الترتيب والتعقيب وسرعة ترتب ما بعدها على ما قبلها دون مهلة، مع (إذا) الفجائية في قوله سبحانه: (فإذا هم)، و(هم) مبتدأ خبره (ينسلون)، وقوله: (من الأجداث إلى ربهم) متعلقان بالخبر، وهذا البناء مختلف عما في القمر والمعارج كما سيأتي، إن الخبر هنا جملة واحدة تُنطَق في نفسٍ واحدٍ لا يحتمل التشبيه الذي يبطيء حركة الزمن، كما لا يتسق مع تصور وقوع الأحداث؛ فالقوم في حَيِّز التصديق على حدِّ عبارة البقاعي.

وقد أفادت (إذا) أن النسلان وهو سرعة المشي وسرعة العدو يتحقق في وقت النفخ ولا يتخلف عنه، مع أن النسلان لا يكون إلا بعده بمراتب، وهي جمع الأجزاء المتفرقة والعظام وتركيبها وإحياؤها، وهذا دليل قدرته تعالى ونفوذ إرادته، حيث يُنفخ

([1]) السابق: ٢٣/٣٦.

في الصور فيكون في وقته جمع وتركيب وإحياء وقيام وعدو في زمان واحد. [١] وهذا طيٌّ عجيب للأحداث؛ فعلى الرغم من تلك التقديرات والأحداث المطوية، إلا أننا نقف على فعلين فقط (ونفخ، ينسلون)، وبينهما متعلقان يدلان على البداية والنهاية؛ تبدو البداية من قوله: (من الأجداث) بدلالة (من) على الابتداء، وتبدو النهاية من قوله: (إلى ربهم) بدلالة (إلى) على الانتهاء، فالآية تطوي حياة كاملة في كلمات معدودة، إنها الحياة البرزخية التي سكن فيها القومُ أجداثهم بعد النفخة الأولى، ثم نفخ مرة أخرى لإحيائهم وبعثهم فخرجوا سريعًا من الأجداث؛ لترقب ما يقضي به رب العالمين، وفي ذِكر الربِّ دون اسم آخر دالٍّ على الهيبة دلالة على "من أساء واضطر إلى التوجه إلى من أحسن إليه، يكون ذلك أشد ألمًا وأكثر ندمًا من غيره". [٢]

تأمل الماضي أولًا، ثم إذا الفجائية ثانيًا، ثم علامات دلالية خاطفة دالة على ابتداء يعقبه انتهاء ثالثًا، وهو انتهاء إلى ما ليس بعده شيء (إلى ربهم)، ثم التعبير بقوله: (ينسلون) هنا خاصة، دون (يخرجون) كما في القمر والمعارج؛ وهو بمعنى يسرعون بطريق الإجبار دون الاختيار. [٣] ويتسق ذلك مع ما تقرر من أن القوم ليسوا فاعلين بل مفعول بهم على طول السياق العام، وهذا يخالف الإرادة الظاهرة في قوله: (يخرجون). وأصل مادة (نسل) يدل على الانفصال عن الشيء، يقال: نَسَلَ الرِّيشُ والشَّعر أي سَقط، وهذا نُسَال الطائر ونَسيل الدابة ونُسَالتُها. ونَسَلَ الولدُ يَنْسِلُ إذا وُلد لأَنَّه يَسقُط من بطنِ أُمّه إِلى الأَرض. ونَسَلَ يَنْسِل نَسَلانًا عَدا. ونسل الذئب

---

(١) مفاتيح الغيب: ٢٩١/٢٦، حاشية زادة: ١٣٥/٤.

(٢) مفاتيح الغيب: ٢٩١/٢٦.

(٣) ينظر: إرشاد العقل السليم: ٣٠٣/٥، مفاتيح الغيب: ٢٩١/٢٦.

إذا أسرع بإعناق، كما يقال: انسلّ في عَدْوِهِ وهو الخروج بسرعة كنسول الريش .[1] ففي الأصل دلالة على الانفصال والضعف والعدو، وجميعها دلالات تقرب مشهد البعث، وارتداد القوم إلى حالة الضعف وحاجتهم إلى رب يأوون إليه في سرعة وعجلة، فضلا عما فيه من معنى الولادة، وكأن بعثهم ولادة جديدة فيها من الضعف ما فيها.

ولاحظ البغوي دلالة الحياة من خصوصية التعبير بالفعل، فالمعنى يخرجون من القبور أحياء، ومنه قيل للولد: نسل لخروجه من بطن أمه. ولاحظ الطاهر ما في المصدر (النسلان) من معنى التقليب والاضطراب. [2] فقد عُني النظم الحكيم هنا ببيان البداية والنهاية، وكأنهم وُلدوا من الأجداث، وسرعان ما كانت نهايتهم بين يدي رب العالمين في سرعة وبغتة وطيٍّ للزمان؛ ولذلك تأخر الخبر، وتقدم عليه المتعلقان لشدة العناية بهما؛ ومن ثم لم يطلب السياق تشبيهًا، يبطيء تلك الأحداث، ناهيك عما فيه من إيماء إلى أنه زمنٌ انعدام المشبَّهات، فلا يوجد ما يُشبَّه به حالهم في تلك الساعة وهذا الموقف، ولذلك نمسك هنا كما أمسك الكتاب، ونستشعر الهولَ والرهبة بين يدي ربنا القدير المقتدر، فاللهم قنا شرَّ الإساءة إلى من أحسن إلينا، ولا تخزنا بالتقصير في شكرك وحمدك ومعرفة فضلك ورضوانك.

مسلك النظم في سورة القمر:

مقصود سورة القمر بيانُ شدة اقتراب الساعة؛ وموعظةُ الكافرين وإنذارهم بعد إعراضهم عن الآيات الشاهدة بصدق النبي ورسالته، وتكذيبِهم بها، وسوقُ أخبار

---

(١) يراجع: أساس البلاغة: ٢/٤٣٩-٤٤٠، مقاييس اللغة: ٥/٤٢٠-٤٢١،المفردات للراغب: ٩٣، بصائر ذوي التمييز: ٥/٤٨.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير: ٢٣/٣٦، معالم التنزيل: ٤/١٧.

الأمم السابقة وعاقبةِ تكذيبهم؛ زجرًا للمشركين عن تماديهم في الضلال، فهم ليسوا خيرًا من سابقيهم، ثم إنهم سيهزمون في الدنيا، وعذابُ الآخرة أشد وأبقى.

فما زال القوم في أكناف الموعظة والزجر لعلهم يهتدون، كما يشهد بذلك سياقُ الحال وسببُ النزول، وقد أتى سياقُ المقال وبناءُ النظم الشريف متسقًا مع ذلك تمام الاتساق، وكان التشبيه حلقة من حلقات النظم المتصلة.

قال تعالى: (فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ . خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ . مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ) القمر: ٦-٨.

النظم هنا على غير ما في سورة يس؛ لأن الأمر هناك كان موجزًا سريعًا خاطفًا بيّنًا واضحًا بنفسه، لا يتطلب تشبيهًا؛ لأنهم يعاينون تلك الأهوال، أما هنا فقد بُني النظم الشريف على إجمالٍ أعقبه تفصيلٌ، وإبهامٍ أعقبه بيانٌ بالأهوال والأحوال؛ إمعانًا في تجلية ما يلقونه في هذا اليوم الشديد، وإعذارًا وقطعًا لكل شبهة، وإلهابًا وتهييجًا لهم إلى إعلان التصديق والإيمان.

فالآيات تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم ووعيدٌ للكافرين، والفاء في (فتول) فصيحة، أي إذا كانت النذر لم تغن فأعرض عن جدالهم. وفي الأمر بالتولي إيذانٌ بغضب ووعيد، مما يثير تساؤلًا عن مجمل هذا الوعيد؛ ويأتي الاستئناف البياني (يوم يدع الداع) كالجواب عن هذا السؤال. وقد بين الطاهر وثاقة عُرى النظم بما لم يوجد عند غيره فقال: " وإذ قد كان المتوعد به شيئًا يحصل يوم القيامة قدم الظرف على عامله وهو(يقول الكافرون هذا يوم عسر)؛ ليحصل بتقديمه إجمالٌ يفصله بعضَ التفصيل ما يُذكر بعده، فإذا سمع السامع هذا الظرفَ عَلم أنه ظرف لأهوال تُذكر بعده هي تفصيل ما أجمله قوله: (فتول عنهم) من الوعيد، بحيث لا يحسن وقع شيء مما في هذه الجملة هذا الموقع غير هذا الظرف، ولولا تقديمه لجاء الكلام غير موثوق العرى، وانظر كيف جَمَعَ فيما بعدَ قوله: (يوم يدع الداع) كثيرًا من الأهوال آخذٌ بعضها

بحجز بعض بحسن اتصال يَنقل كلٌّ منها ذهنَ السامع إلى الذي بعده من غير شعور بأنه يعدد له أشياء". [1]

فالآيات الثلاثة توضع في النفس وضعًا واحدًا، كما يقول الإمام عبد القاهر؛ لشدة اتحاد أجزاء الكلام، وتداخل بعضه في بعض؛ فوقع الظرف (يوم يدع) في صدر الكلام، وكثير من المفسرين والمعربين على أنه متعلق باذكر مضمرًا، أو بقوله:(يخرجون). "ويمكن نصبه بفعل مؤخر حذف للدلالة على ضيق العبارة عن شرحه وبيانه؛ لكمال فظاعةِ ما يقع فيه من الطَّامةِ التامةِ والدواهي العامة، كأنه قيل: يوم يدع الداع يكونُ من الأحوالِ والأهوال مالا يفي ببيانه نطاقُ المقال". [2] وهذا ألصق بغرض العظة وقصد الزجر عن الكفر. وذكر الطاهر سبعة من هذه الأهوال التي جلاها النظم الحكيم بعد الظرف الذي تصدر السياق، وهي إجمالًا: دعاء الداعي لأنه مؤذن بأنهم محضرون للحساب، تنكير (شيء) وإبهامه يفيدان التهويل والتعظيم، الوصف بقوله: (نكر) أي تنكره النفوس لأنها لم تعهد مثله – وهذا الوزن قليل في الصفات–، الكناية عن ذلتهم بقوله: (خشعًا أبصارهم)، دلالة التشبيه على شدة الخوف، الوصف بـ (مهطعين) والإهطاع هو المشي بسرعة مع مد العنق لخوف أو طمع، قولهم: (هذا يوم عسر) أي صعب شديد وهو دليل شدة الخوف. [3]

بدأت حركة المعنى وبزغت من هذا الظرف (يوم) بما فيه من إبهام، وهو استئناف بياني يثير التساؤل عن مجمل الوعيد المترتب على أمر النبي بالتولي، وفي التساؤل إبهام آخر، وهو سؤال بالفحوى منزَّلٌ منولة الواقع، أطال الكلام تقديرًا، مما يتسق مع

([1]) التحرير والتنوير: ١٧٦/٢٧.

([2]) إرشاد العقل السليم: ٣٣٥/٢. في تفسير قوله تعالى: (يوم يجمع الله الرسل) المائدة: ١٠٩.

([3]) ينظر التحرير والتنوير: ١٧٧/٢٧–١٧٨. ويراجع: الكشاف: ٦٥٥/٥، البحر المحيط: ٣٥/١٠–٣٧.

السياق والعظة وإرادة الازدجار، فضلًا عن عدم قطع الكلام وتداخل أجزائه. ثم توالى الإبهام في (شيء نكر)، وتضاعف معه التهويل والتفظيع، ثم يأتي التفصيل والبيان لطرف من الأهوال في صورة أربعة أحوال صاحبها فاعل (يخرجون)؛ الحال الأولى مقدَّمةٌ (خشعًا أبصارهم) للعناية والاهتمام ببيان حالهم من الذلة وقت خروجهم من قبورهم، وتقديمُها وتأخر عاملها يلمح إلى استقلال المعنى وأهميته. والحال الثانية: (كأنهم جراد منتشر)، والحال الثالثة: (مهطعين إلى الداع)، والحال الرابعة: (يقول الكافرون ...)، ويمكن اعتبارها استئنافية، ويكون الفصل لشبه كمال الاتصال، وتنزل منزلة الجواب لسؤال مقدر، نشأ من وصف أهوال ذلك اليوم وأهلِه؛ وبذلك يطول بناء النظم الشريف اتساقًا مع السياق وإرادة العظة، كما سبق في الاستئناف الأول (يوم يدع).

والتأمل في موقع التشبيه من الأحوال الأربعة قد يهدي إلى سر الإتيان به أصلًا في هذا السياق؛ فالأحوال الثلاثة غير جملة التشبيه بنيت مفردات جُمَلها ومعانيها – إذا صح النظر – من حقول دلالية هي ألصق بالآخرة غالبًا في استعمالها مع المشركين، كما يقرره منهج القرآن الكريم؛ فقد أثبت للكافرين خشوع الأبصار والوجوه يوم القيامة، وهو خشوع ذلة ورهبة، بخلاف إثبات الخشوع للمؤمنين في الدنيا لأنه خشوع صدق وإيمان. [1] ولذلك نجد وصف المؤمنين بمطلق الخشوع الذي أصله القلب والروح، مثل ما في قوله تعالى: (خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشۡتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ) آل عمران ١٩٩، (كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ) الأنبياء ٩٠، (قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ . ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ) المؤمنون: ١-٢، بخلاف تعلق خشوع الكافرين بالحس مثل الوجه والأبصار، مثل ما هنا في القمر

---

(١) ينظر: الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق، د/عائشة عبد الرحمن: ٢٢٧-٢٢٩، التفسير البياني للقرآن الكريم، د. عائشة عبد الرحمن: ١/١٣٢-١٣٣.

والمعارج، ومثل قوله تعالى: (قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ . أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ) النازعات:٨-٩، (هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ . وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ) الغاشية: ١-٢. فخشوعهم لا يصدر عن خشية لله، بل عن ذلة وانكسار نفسي، وقد صُرِّح بهذا السبب في قوله سبحانه: (وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ) الشورى: ٤٥.

وقريبٌ من ذلك كلمة (مهطعين)، حيث وردت وصفًا للكافرين في الآخرة وما يلقونه فيها من عذاب في موضعين (إبراهيم: ٤٣، القمر: ٨)، ووردت وصفًا لهم في الدنيا في موضع واحد، وهو سياق سورة المعارج الذي معنا (المعارج: ٣٦).

ثم إن الحال الأخيرة (يقول الكافرون هذا يوم عسر) تكشف عن وصفهم هذا اليوم بالصعوبة والشدة، ولا يكون ذلك إلا في الآخرة بعد معاينة الأهوال.

وينتظم مع ذلك استعمال القرآن كلمة (الأجداث) -وهي القبور المهيَّأة للبعث- في هذا السياق فقط، سياقِ بعث الناس يوم القيامة وحشرِهم للحساب، دون كلمة (القبور) الذي تتصل بالدنيا.

فجميع الأحوال تتصل بالآخرة وتلتصق بأحداثها من حيث المفردات والمعاني، بخلاف الحال الثانية التي تضمنت التشبيه، فهي ترتد بالمعاني إلى سياق الدنيا؛ لأن صورة الجراد المنتشر قريبة منهم قربًا شديدًا في واقعهم وبيئتهم؛ قال عبد يغوث بن وقاص الحارثي: [1]

وعاديةٍ سَوْمَ الجرادِ وَزَعْتُها   بِكفِّي وقد أَنْحُوا إليَّ العَوَاليَا

([1]) المفضليات: ١٥٨، الأغاني: ٣٦٢/١٦. والعادية: القوم يعدون من العَدْو وهو الركض، وسوم الجراد أَي: كسومه وهو انتشاره. وزعتها: كففتها والوازع: الكاف والمانِع. وأنحوا الرماح: أمالوها وقصدوا بها من النَّحْو وهو القَصْد. والعالية من الرُّمح: أعلاه ويقال: مادون السنان بذارع. ينظر: خزانة الأدب للبغدادي: ٢٠٢/٢.

وقال قبيصة بن إياس الطائي: [١]

ومبثوثةٍ بَثَّ الدَّبَى مُسبَطرَّةٍ رَدَدْتُ على بِطَائِها مِن سِرَاعِهَا

والدَّبَى هو الجراد قبل نبات أجنحتها وقبل أن يطير، يُضرب به المثل في الكثرة، فيقال: "أكثر من الدَّبَى". [٢]

وفي الأصمعيات للمفضل النكري: [٣]

كأنَّ النَبلَ بينهُمُ جَرادٌ تكفيه شآميَةٌ خَرِيقُ

إذن وردت هذه الجملة الحالية (كأنهم جراد منتشر) بتلك الصورة متوسطةً بين بقية الأحوال، وكأنها تصك آذانهم وتلمس فيهم جانبَ الحياة والواقع، وتنبههم إلى أنهم ما زالوا أحياء في طور التكليف وإمكان العمل، فيرتدعوا قبل أن ينتقلوا إلى دار لا رجعة

---

(١) شرح ديوان الحماسة للتبريزي: ٦٧/١. المبثوثة: المتفرقة. الدبي: الجراد. المسبطرة: الممتدة. البطاء: جمع بطئ كسراع وسريع والضمِير للخيل. والمعنى: رب خيل متفرقةٍ ممتدةٍ في وجه الأرض رددت أولها على آخرها، أَي ضربت وجوه أوائلها حتى ألحقتها بأواخرها، يريد أنه كان رئِيسًا مُطاعًا.

والشاعر هو إياس بن قبيصة الطائي: من أشراف طيِّئ وفصحائها وشجعانها في الجاهلية. الأعلام للزركلي: ٣٣/٢.

(٢) ينظر: المستقصى في أمثال العرب، للزمخشري: ٢٨٨/١-٢٨٩. واستشهد فيه ببيت إياس بن قبيصة. وينظر: لسان العرب: دبى. ولامرئ القيس يصف الخيل: (فهُنَّ أرسالٌ كمثل الدَّبا * أو كقطا كاظمةِ الناهلِ) يقول: خيلنا ترد القتال كما ترد القطا العطاش الماء. ينظر: شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات، لأبي بكر الأنباري: ٩. ولعنترة قوله: (كيف التقدُّمُ والسيوفُ كأنها * غَوغَا جَرادٍ في كَثيبٍ أَهْيَمِ) ينظر: شرح المعلقات التسع لأبي عمرو الشيباني: ٢٥٤، جمهرة أشعار العرب: ٣٧١. والغوغاء هو : صغار الجراد، ومنه قيل لعامة الناس غوغاء. أدب الكاتب لابن قتيبة: ص ١٦٥. ويراجع: المعاني الكبير لابن قتيبة: ٣٥/١.

(٣) الأصمعيات: ٢٠١.

بعدها، ويفارقوا حال التكذيب الذي ركزت عليه السورة في وصف حالهم وديدنهم في مطلعها، وتصدير قصص السابقين بقوله: (كذبت)؛ قال بعضهم معتبرًا: (ما رأيتُ الجرادَ إلا ذكرتُ الحشر)، [1] ولذلك ورد المعنى هنا مُصوَّرًا، دون أن يقال مثلا: يخرجون في كثرة وتتابع واكتظاظ؛ لأن الصورة التشبيهية هي التي تنقل الذهن إلى الدنيا، فلما كان الغرض هو العظة والمقصد هو الانتهاء عن الكفر، كان في التشبيه إحالة لهم إلى الدنيا في سياق متصل بالآخرة. والله سبحانه أعلم.

مسلك النظم في سورة المعارج:

قال تعالى: (فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ . يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُب يُوفِضُونَ . خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ) المعارج: ٤٢-٤٤.

النظم هنا قريب مما في سورة القمر؛ حيث بُني على أمر النبي صلى الله عليه وسلم : (فذرهم)، كما أمره في القمر (فتول عنهم)، ثم أعقب الأمرَ تفصيلٌ وذكرُ شيء من أحوالهم كما في القمر أيضًا، فضلًا عن اجتماع السياقين على إيراد التشبيه.

وهذا السياق متصلٌ بما قبله من الرد على المشركين وطمعهم في دخول الجنة؛ لأن ردعهم عن ذلك بدأ بقوله سبحانه: (كلا إنا خلقناهم مما يعلمون) المعارج: ٣٩، "وهو كلامٌ دالٌّ على إنكارهم البعثَ، فكأنه قال: كلا إنهم منكرون للبعث والجزاء، فمن أين يطمعون في دخول الجنة، وهو احتجاج عليهم بالنشأة الأولى، كالاحتجاج بها

(١) ربيع الأبرار، للزمخشري: ١/١٢٣.

عليهم في مواضع من التنزيل". [١] أي كما في قوله تعالى: (وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ . قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ) يس: ٧٨-٧٩، وقوله: (أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ) ق: ١٥، وقوله: (وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ) الواقعة: ٦٢، فالكلام هنا ماضٍ في إبطال إنكارهم أمر البعث، وهو متصلٌ بصدر السورة ومطلعها، وسؤالِهم عن العذاب تهكمًا وتعجيزًا، والأمر في الخاتمة هنا (فذرهم) مطلٌ على الأمر في المطلع (فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا) المعارج: ٥، والأمران مَركزان للمعاني وموجهان لحركة النظم فيها، فالأمر بالصبر متفرع عن السؤال عن العذاب على جهة الإنكار والاستهزاء، ثم تفرع عن الأمر بالصبر ما يتسلى به النبي الأمين صلى الله عليه وسلم والمؤمنون، والأمر بالترك والإعراض عن خوضهم ولعبهم متفرع عن حال إهطاعهم المنكَرة إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- وطمعهم في دخول الجنة، ولا شك أن الأمر بالترك أشد من الأمر بالصبر، فهو ترق ينبيء عن الغضب والوعيد الشديد.

وتأكيدُ خلقهم مما يعلمون وما فيه من دلالة على إنكارهم البعث هو احتجاجٌ على هذا الإنكار، وهو الإنكار الذي بدأ إجمالا في أول السورة (إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا) المعارج:٦[٢]، ثم إن في هذا الخبر تهكمًا بهم يقابل تهكمَهم بالمؤمنين في دخول الجنة دونهم، وكذلك تهكمَهم بوقوع العذاب الموعود في صدر السورة؛ "فعلمُ ما جادلوا فيه قائمٌ بأنفسهم وهم لا يشعرون". [٣] ثم صُرِّح بإمكان البعث في قوله: (فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ

---

(١) الكشاف: ٢١١/٦بتصرف. وينظر: مفاتيح الغيب:٦٤٧/٣٠. وقال الطاهر: "الخبر مستعمل في لازم معناه، وهو إثبات إعادة خلقهم بعد فنائهم". التحرير والتنوير: ١٧٨/٢٩.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير: ١٧٩/٢٩.

(٣) السابق.

وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ . عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ)، ثم تفرع عن ذلك كله قوله سبحانه: (فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ)، فاتصل السياق وارتبط النظم.

والقصدُ من هذا التطويل في ربط السياقات هو التأكيد على أن السياق في الدنيا، وهو سياق لجج وجدال وقياس أمر على آخر، ودعوة إلى إعمال العقل والنظر في النفس، وتَبَيُّن ضعف الخلق وعجزهم، واستشعار قدرة الخالق سبحانه وتعالى، والكف عن التهكم والاستهزاء، ومعرفة مقام النبي وقدره، والخوف من عقوبة التبديل، وطلب الحق ونصرته، والاستعداد لما هو واقع وآت، وتزكية النفوس وتكميلها لاستحقاق الجنات ...، كلُّ ذلك وغيره مما يوحي به مسلكُ النظمِ الشريف يوجه السياقَ للدنيا، فجميع هذه المعاني واقعة فيها ولازمة لها؛ لأنها تقتضي تكليفًا وعملا، مما يتسق مع ذكر أحوال المؤمنين قبلُ (إلا المصلين . الذين هم على صلاتهم دائمون ...)، فمن أراد تكميل نفسه وتزكيتها، وطلب الجنة، فعليه لزوم حال المؤمنين، والتخلي عن ديدن التهكم والاستهزاء والخوض واللعب، والنأي سريعًا عن كل ما يصد عن ذلك، ورأسُ الأمر تركُ عبادة الأصنام الذي جلاه التشبيه (كأنهم إلى نصب يوفضون)؛ فالصورة هنا من بين الأحوال التي ذكرت لبيان حالهم التي سيكونون عليها يوم البعث، لكنها صورة تُحيلهم إلى الدنيا إحالة عنيفة قوية، بما فيها من تهكم يتسق مع تهكمهم السابق، فمقصود التشبيه وغرضه هو التهكم بهم ودعوتهم لإعادة النظر في أمرهم وباطلهم، ومن ثم نفهم سر إيراد التشبيه هنا، وبناء المعنى عليه، دون سوقه مجردًا بمثل أن يقال: يوم يخرجون سراعًا في كثرة وتفرق واندفاع وانبساط؛ فالتشبيه هو ما يردهم إلى تلك الحال المرادة المنكرة، في سياق يُلقِي أمرهم بين أيديهم، قبل أن تَنتفي قدرتهم في طلب الهدى، ويَسألون الرد إلى الدنيا فلا يُجابون.

بدأ السياق بهذه الفاء الفصيحة (فذرهم) والتي شدت رباط المعاني، فاتصلت وتداخلت، كما هو شأن بداية السياق في سورة القمر، وطوت الفاء كلامًا مطوَّلًا تدل عليه المعاني الكثيرة من السياقين القريب والبعيد، والتقدير على كونه متفرعًا عن

قولـه: (ومـا نحـن بمسبوقين): "إذا تبين أننـا لا يفوتنـا مـا نريـد مـنهم وبهم من خير وشر، وأنه ليس تأخير عقابهم لعجز بل لحكمة داعية إليه؛ فدعهم فيما هم فيه من الأباطيل واشتغل أنت بما أمرت به، فإنهم ملاقون عما قريب اليوم الذي وعدوا به وهو يوم يكون الناس كالمهل وكذا وكذا". (١)

ومراعاة هذا التقدير –بطوله الذي يمكن أن يزداد، وبتكرار المعاني– يقوي من حضور القوم في الدنيا، وأن تهديدهم بالبعث والعذاب حاصلٌ في المستقبل؛ ولذلك شاعت الأفعال المضارعة في السياق (يخوضوا، يلعبوا، يلاقوا، يوعدون، يخرجون، يوفضون، ترهقهم، يوعدون) مما جعل للتشبيه مقتضًى كذلك، بصك آذانهم بهذه الصورة التي تلفتهم إلى الدنيا لفتًا قويًّا وما هم عليه فيها من شرك ومسارعة إلى عبادة ما لا ينفعهم ولا يضرهم، فيُعملون عقولهم فيرتدعوا عما هم فيه، فينجون من عذاب الآخرة، فضلا عن الإطالة التي حققها التشبيه في السياق، وهي نوعان: إطالة مادية (لفظية) بزيادة المفردات والمعاني التي تتسق مع طول السياق الدنيوي، وإطالة معنوية (فكرية) لأن الصورة لها ظلال وأصداء تستدعي من العقل النظرَ والتدبرَ والتأملَ، ومحاولة إدراك الغرض والمقصود، واستكشاف ما ترمي إليه؛ مما يطيل آفاق السياق إلى ما لا حدَّ له.

وللغرض ذاته في القمر كان الأمر هنا تهديدًا ووعيدًا للمشركين وتسليةً للنبيِّ صلى الله عليه وسلم ، إنه أمر إلى مفارقة حالهم من الخوض بالباطل واللعب في الدنيا والاستهزاء والتهكم بالمؤمنين، إلى أن يلاقوا يوم البعث والنشور فيتبدل الخوض واللعب والهزء ذلة وانكسارًا وعذابًا، والتهديد والوعيد والتسلية وغير ذلك من معان يدل

---

(١) حاشية زادة: ٥٤٨/٤، إعراب القرآن وبيانه: ٢١٩/١٠. وجعله الطاهر متفرعًا عن قوله: (فمال الذين كفروا قبلك مهطعين)، وهو ما يكثر المعاني والتقديرات كما قلت. ينظر: التحرير والتنوير: ١٨١/٢٩.

عليها الأمر، كل ذلك يقرر المشهد الدنيوي الذي طلب التشبيه واستدعاه. وفي التعبير بـ (ذرهم) دون (دعهم) إهانةً وعدم اعتداد، واشتقاقه يدل على ذلك فهو من الوَذْر وهي قطعة اللحم الحقيرة. (١)

والفعلان (يخوضوا ويلعبوا) مضارعان مجزومان في جواب الأمر؛ "للمبالغة في ارتباط خوضهم ولعبهم بقلة الاكتراث بهم، إذ مقتضى جزمه في الجواب أن يقدر: أن تذرهم يخوضوا ويلعبوا أي يستمروا في خوضهم ولعبهم وذلك لا يضيرك". (٢) القرآن يضعهم أمام أفعالهم الدنيئة، وأنهم مستمرون عليها بدلالة الفعلين على التجدد والحدوث، إنه إمهالٌ ومتاركةٌ لهم إلى غاية كشفت عنها (حتى) في قوله: (حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون)، والإضافة تدل على أنه يوم خاص بهم قد أنبأهم الله بما سيلقون فيه من أهوال، ولذلك جاء النعت بجملة الصلة للدلالة على أنه سبق لهم علمٌ بالموعود. وتحديد غاية تركهم والتوسع فيها بما لا يعلم وقتها إلا الله –تعالى– فيه إشارة إلى يقين النبي صلى الله عليه وسلم بالله وبموعوده وأنه ناصره، وفيه تسكين لقلبه وتسلية لنفسه من هموم ما يلقاه من المشركين، وأن ليس عليه إلا البلاغ.

تأمل تفصيل ما بعد الأمر في (فذرهم)، شأن ما كان بعد الأمر في (فتول عنهم) في سورة القمر، وهو تفصيل استدعاه السياق الدنيوي الوعظي الزاجر كما سبق تفصيله، مما اقتضى أن يكون التشبيه في قلب هذا التفصيل ومظهرًا أصيلًا فيه.

---

(١) ينظر: روح المعاني: ١٢/١٣٤. وقيل: إنَّ في (يدع) معنى ترك الشيء مع الاعتناء به، واشتقاق الإيداع يؤيد ذلك؛ فهو تَرْكُ الوديعة مع الاعتناء بها، ومن ثم يُختار لها المؤتَمَن، ومثله موادعة الأحباب، بخلاف (يذر) فهو الترك مطلقًا، أو مع الإعراض والرفض الكليّ . ينظر: السابق.

(٢) التحرير والتنوير: ٢٩/١٨٢.

فالفاء الفصيحة تضمر كثيرًا من المعاني وتلوي بالأذهان إلى ما قبلها من معان قريبة وبعيدة تستحضر بها المقدَّرَ كي تبني عليه المعنى، وقربُ دلالة الخوض واللعب تعكس الإغراق في التفصيل وضرورةَ الركون إليه في التدبر والنظر، وفي قوله: (يلاقوا) صورة تمهد للصورة الأكبر والمشهد الأعظم الذي سيأتي في التشبيه؛ ففي ملاقاة اليوم مجاز من جهتين؛ لأن اليوم لا يَلقى ولا يُلقى. (١)

والمفاعلة تدل على أن يومهم الموعود سيلقاهم، كما أنهم سيلقونه، وفي هذا تفصيل بديع مع إيجاز في اللفظ، فضلا عما تضيفه الاستعارة المكنية من ثراء دلالي آخر، ناهيك عن إمكان اعتبار الصورة من المجاز العقلي بجعلها في (يومهم) لعلاقة الزمانية، فهم لا يلقون اليوم لكن يلقون ما فيه من الأهوال، والمجاز بما فيه من إبهام وإيجاز يحقق الرهبة والفزع، ويأتي البدل (يوم يخرجون من الأجداث سراعا) لزيادة التقرير والإيضاح لليوم، وأنه يوم البعث والنشور، وبذلك تتحدد الغاية في (حتى) بدقة، بعد التوطئة لها بالمبدل منه، والبدلُ يُؤتى به في مقام يُعتنى فيه بشأن المراد عن طريق قصد النسبة مرتين، والتقدير حتى يلاقوا يوم يخرجون...، والمرادُ المُعتَنى بشأنه هنا هو بيان فظاعة ما يلقونه من عذاب في هذا اليوم ردعًا لهم عن كفرهم وخوضهم ولعبهم في الدنيا؛ وتحقق الاعتناء بما في البدل من نظم أوفى من المبدل منه، على نية استئناف القصد إلى المراد؛ ليَظهر بمجموع القصدين إلى المبدل منه والبدل مزيدُ الاعتناء بالشأن. (٢)

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير: ١٨٣/٢٩.

(٢) ينظر: مفتاح العلوم: ٢٥٣. وتفصيل ذلك في (البدل المفرد في القرآن الكريم – مواقعه وأسراره البلاغية) رسالة دكتوراه، د. وليد إبراهيم حمودة: ٦٣-٦٤.

وفظاعة الشيء هي كونه هايلًا، لو ذكر أولَ مرة من غير ذِكر المبدل ربما لا يحيط به الذهن، ويذهلُ عن ضبطه لفظاعته، والفظيعُ إنما يُؤتى به لقصد التقريع والتوبيخ؛ مما يَقتضِي الاعتناءَ به، فيُقصَدُ مرتين. (١)

وبذلك نقف على تدرج النظم الشريف وترقيه في بيان هذا اليوم الموعود وما فيه من عذاب، وذلك بلفظ المبدل منه أولًا، ثم بلفظ البدل ثانيًا، ثم بالتشبيه الذي حقق البيان وأكده بلفظ (كأن)، وأُدمج فيه تقريعهم على عبادة الأصنام تشهيرًا بهم.

وقد ذكر النظمُ الشريف لخروجهم أربعة أحوال (سراعًا، كأنهم إلى نصب يوفضون، خاشعة أبصارهم، ترهقهم ذلة)، وقد تقدمت الحال المشتملة على التشبيه لتناسبِ الإفاضة مع السرعة في الحال الأولى، فكان التشبيه تمثيلًا للسرعة وتصويرًا لها بمشهد دنيوي كأنه معترض بين مشاهد وأحوال أخروية، لقصد جذب الأذهان إليه؛ لأنه سبب ما سيلقونه –مع ملاحظة تقديم (إلى نصب) لأنه المقصود الأهم– ومن ثم كان التشبيه أوفى الأحوال في النظم وأطولها في التركيب، إمعانًا في شد انتباه القوم.

ومن إعجاز النظم الشريف ودقته في جعل التشبيه ردًّا لهم من الآخرة إلى الدنيا لمحاسبة النفس ومكالمة العقل، أن قُدِّم تركيب التشبيه وهو الحال الثانية، على قوله تعالى: (خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة) لما سبق ذِكرُه، ثم لإحداث هذا التداخل بين مشاهد الدنيا والآخرة، وجعلِ التشبيه في مركز النظم، ودوران الأحوال عليه، فلمّا كانت جميع الأحوال من فاعل (يخرجون) كان وصفهم بالخشوع والذلة ملحوظًا في التشبيه أيضًا بما حصل له من تقديم، فكلٌّ من جملتي (خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة) يمكن جعلهما حالًا من فاعل (يخرجون) أو فاعل (يوفضون)، فعلى الأول يتغلب

---

(١) يراجع: الأطول : ١٠/٢، مواهب الفتاح : ٤١/٣.

مراعاة مشهد الآخرة، وعلى الثاني يزداد تحقق ما قررته من ردهم إلى الدنيا بالتشبيه وتوابعه أو لواحقه، وتتحقق المبالغة في تحقير حالهم تلك من إفاضتهم إلى الأنصاب خاشعين أذلاء وهي لا تضر ولا تنفع، في حين أنهم يلتفون حول النبي حلقا حلقا، مستكبرين، مادي أعناقهم، رافعي أبصارهم، يسخرون ويستهزئون ويطمعون في دخول الجنة، فكأن تلك الأحوال التي لحقت بالتشبيه تقابل أحوالهم في معاملة النبي -صلى الله عليه وسلم-، وتنعى أفعالهم، وتسَّاءل: كيف تطمعون في دخول الجنة وهذا حالكم؟!

وإذا اعتمدنا ما عند الزمخشري [1] من كون ما بعد "كلا" في قوله تعالى: (كلا إنا خلقناهم مما يعلمون) إلى آخر السورة، إنما هو تعليل لردعهم عن الطمع في دخول الجنة؛ رسخ ما تقرر من كون التشبيه مطلوبًا ومنتظمًا في سلك النظم، ومناسبًا للغرض.

(١) ينظر: الكشاف: ٦/٢١١.

المبحث الثاني

نســـاء أهل الجنـــة

ذِكرُ نساء أهل الجنة من الحور العين في القرآن الكريم:

١- قال تعالى: {وَبَشِّرِ الَّذِين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّـاتٍ تَجْـرِى مِـن تَحْتِهَـا الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقاً قَالُواْ هَذَا الَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُواْ بِهِ مُتَشَابِهاً وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} البقرة: ٢٥.

٢- قال تعالى: {قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ} آل عمران: ١٥.

٣- قال تعالى: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا} النساء: ٥٧.

٤- قال تعالى: {إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ . أُوْلَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ . فَوَاكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ . فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ . عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ . يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَـأْسٍ مِـن مَّعِـينٍ . بَيْضَـاء لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ . لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ .وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ . كَـأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ} الصافات: ٤٠-٤٩.

٥- قال تعالى: {هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ . جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ . مُتَّكِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ . وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ . هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ . إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ} ص: ٤٩-٥٤.

٥- قال تعالى: {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ . فِي جَنَّاتٍ وَعُيُـونٍ . يَلْبَسُـونَ مِـن سُـندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ . كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ . يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِـينَ . لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ} الدخان: ٥١-٥٦.

٦- قال تعالى: {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ . فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ . كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ . مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ} الطور:١٧-٢٠.

٧- قال تعالى:{ مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ . فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ . فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ} الرحمن: ٥٤-٥٨.

٨- قال تعالى: {فيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ . فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ . فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ . فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} الرحمن: ٧٠-٧٥.

٩- قال تعالى: {وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ . أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ . فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ . ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ . وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ . عَلَى سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ . مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ . يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ . بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ .لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ . وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ . وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ . وَحُورٌ عِينٌ . كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ . جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} الواقعة: ١٠-٢٤.

١٠- قال تعالى: {وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ . فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ . وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ . وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ . وَمَاء مَّسْكُوبٍ . وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ . لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ . وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ . إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاء . فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً . عُرُباً أَتْرَاباً . لِّأَصْحَابِ الْيَمِينِ} الواقعة: ٢٧-٣٨.

١١- قال تعالى: {إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً . حَدَائِقَ وَأَعْنَاباً . وَكَوَاعِبَ أَتْرَابا .} النبأ: ٣١-٣٣.

تلك هي المواضع التي ورد فيها ذكر الحور العين من القرآن الكريم، ترغيبًا وبشارة وتعدادًا للنعيم الذي أعده الله-تعالى-لعباده المؤمنين في الآخرة، وقد ورد التشبيه في ثلاثة

مواضع، وخلت المواضع الأخرى من التشبيه، وهو ما يستحق النظر والتدبر لبيان مقتضيات كل سياق، والله المستعان.

أولا: سياقات التشبيه:

ورد تشبيه نساء أهل الجنة في ثلاثة مواضع من ثلاث سُوَر، هي (الصافات- الرحمن-الواقعة)، وقد تجمعها أسبابٌ مشتركة في سِر إيراد التشبيه، ثم ينفرد كلُّ موضع بأسباب تخصه. ويمكن ردُّ التشبيه في المواضع الثلاثة إلى سببين:

الأول: هو خصوصية صفات مَن استحقوا هذه الصنوف من النعيم المشتملِ على هذه التشبيهات؛ فاستحقوا هذا التكريم الخاص - وفي تشبيه الحور زيادة تكريم - بفضل خصوصية صفاتهم التي تقتضي خصوصية في العمل؛ فهم عباد الله المخلَصون في الصافات، وهم مَن خافوا مَقام ربهم في الرحمن، وهم السابقون في الواقعة، وهي صفات تنبيء عن منازل خاصة في العبودية والخوف والمسارعة والسبق إلى الخيرات.

وذلك بخلاف السياقات التي خلت من التشبيه؛ فلم يرد فيها تلك الصفات، بل ورد التعبير بالذين آمنوا وعملوا الصالحات وبالمتقين، وليس في ذلك نوع خصوصية لتكرره كثيرًا في القرآن الكريم، ولمَّا خلت من الخصوصية ومزيد الفضل خلت من التشبيه.

الثاني: القصدُ إلى المقارنة بين طوائف مختلفة من أهل النعيم والعذاب، وبيان ما أعد لكل طائفة، وما فُضِّل به فريقٌ على آخر.

ففي سورة الصافات يُستثنى (عباد الله المخلصين) [١] بطريق الاستثناء المنقطع الذي يميز من بداية السياق بين هؤلاء العباد المخلصين وبين من سبق ذكرهم من المجرمين الكافرين بالتوحيد والنبوة، وكذلك بين من سيأتي ذكرهم من الظالمين، والمقارنة بين ألوان النعيم والرزق المعلوم، وصنوف العذاب وشجرة الزقوم التي حققت الفتنة والحيرة والضلال، كما سيأتي شرحه وبيانه في مبحث شجرة الزقوم. إن بناء الاستثناء على الانقطاع وبناء السياق عليه من البداية يحدث رجفة عند ذكر صفة هؤلاء العباد الذين أخلصهم الله لطاعته وولايته، فقد صُنعوا على عين الله، ولمَّا أخلصوا دينهم لله أخلصهم الله له، فهم فئة خاصة قليلة.

إنَّ الخصوصية التي اقتضت تفصيل النعيم أكثر بذكر التشبيه المفيد للتزيين، تتمثل أولا في خصوصية الوصف (عباد الله المخلصين)، وما في الإضافة إلى لفظ الجلالة من معنى التنويه والتشريف والتقريب، كما تتمثل ثانيًا في وصفهم بالمخلصين بفتح اللام، وتتمثل ثالثًا في دلالة الاستثناء المنقطع على أن جزاءهم يضاعف أضعافًا كثيرة تفضلًا من الله-تعالى-عليهم، بخلاف الكفرة الذين يجزون

---

(١) وأرى أن سياق الحديث عن عباد الله المخلصين سياقٌ معترضٌ بين ثنايا السياق الطويل الذي يصور حال من يكذب بالبعث يوم القيامة، وذلك المشهد الجدلي (فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ...) الممتد، وبيان الفوز والنجاة بسبب التصديق والإيمان. والاستثناء المنقطع بما فيه من معنى الاستدراك والاستطراد يقوي اعتبار الاعتراض، واعتبار الاعتراض يحدث رجفة وقوة في تلقي الحديث عن جزاء عباد الله المخلصين، وتنبيه الأسماع وتهيئة القلوب لتلقي الحديث، لأن الانقطاع يصورهم وكأنهم جنس قائم برأسه، ليسوا كسائر الخلق، ولا تجري عليهم أحكامُ غيرهم، والاعتراض يزيد من الشعور بهذا المعنى؛ لأنه زحزحة لبناء النظم وإفساحٌ لمعنى عظيم في نفسه، فله أن يحل محلا يبرزه ويكسبه شأوا وشرفا.

جزاءً مماثلًا لعملهم في المقدار وفي كونه سيئًا كالعمل، فاستثناؤهم من المشركين باعتبار أن جزاءهم مماثل لعملهم، وأن جزاء الموحِّد يضاعف. [1]

فتشبيه قاصرات الطرف هنا فيه مزيد تكريم وتشريف لعباد الله المخلصين تناسبًا مع معنى مضاعفة الأجر والثواب الذي أفاده قطع الاستثناء في صدر السياق، ولا شك أن مثل هذا التشبيه يدخل على النفس مزيدًا من الأنس والبهجة ويدفع أكثر إلى الجد والعمل والإخلاص.

وإذا اعتبرنا ما سيأتي تقريره في مبحث (شجرة الزقوم) التي جُعلت فتنة للظالمين وحيرةً وضلالًا، واعتبرنا كون هذا السياق مقابلا لسياق شجرة الزقوم القائم على معنى الفتنة؛ وقفنا على سر آخر لسبب إيراد التشبيه هنا، وهو ما يكشفه بداية السياق أيضا في قوله سبحانه: (أولئك لهم رزق معلوم)؛ فكل ما سيأتي ذكره من ألوان النعيم معلومة لهم، بخلاف صنوف العذاب التي أعدت للظالمين في السياق المقابل والتي خرجت من معنى الفتنة، إنها صنوف من العذاب لم يعهدوها ولم يعهدوا شكلها ولا صفتها ولا لونها، ومن ثم أحيط السياق بالغيب والجهل كما أفاده التشبيه برءوس الشياطين، لأنه يُراد لهم هنا أن يظلوا في تخبط وحيرة واضطراب، وهو ما يزيد عذابهم وألمهم، بخلاف (معلوم) في بداية هذا السياق الذي يزيد من أنسهم وألفتهم ونفي وحشتهم، إن كل ما يُذكر هنا من ألوان النعيم معلوم صفته عندهم في الدنيا، كما قال سبحانه: (وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا) البقرة: ٢٥، ومن ثم نفهم سرًّا آخر لإيراد التشبيه في خاتمة السياق (كأنهن بيض مكنون)؛ إنه مزيد بيان وكشف لصفة قاصرات الطرف بتشبيههن بما شاع عند العرب من تشبيه النساء ببيض النعام المصون.

([1]) ينظر: حاشية زادة: ٤/١٥٢-١٥٣، حاشية الجمل: ٣/٥٣٥.

فالتشبيه متسق مع أول وصف للرزق المعد لهم في الآخرة (معلوم)؛ لأن المعلومية هنا مقصودة قصدًا أساسيًّا؛ لأن الاستثناء أردف بقوله: (أولئك لهم رزق معلوم)، وهي جملة تبين محل الاستدراك كما قال الطاهر [١]، قلت: وهي مناط المقارنة بين السياقين مع فتنة (رءوس الشياطين).

ومن ثم ندرك أيضا سر التشبيه بكأنَّ التي تفيد قوة التشبيه؛ لأنها تزيد في معنى (معلوم).

ناهيك عما يفيده التشبيه من معان عديدة تأتلف مع المقصود من مضاعفة الأجر والثواب، فبعد أن حقق المشبه (قاصرات الطرف عين) معاني العفة والحياء والتغنج والخشوع والتودد والرضا وفرط المحبة، أتى المشبه به (بيض مكنون) فأضاف معاني أخرى مثل الجمال والصفاء والبياض والنعومة والستر والصون والرقة والرفق، "وهكذا لا تجد الحس وحده هو الرابط والجامع، ولكن للنفس نصيب أي نصيب". [٢]

إذن يهدي التشبيه إلى معاني لا حصر لها، خاصة إذا كان الحديث عن ثواب مثل عباد الله المخلصين، وما ينتظرهم من الثواب المضاعف والأجر العظيم، وهي معاني تزيد في أنس الموعود بها، ولا شك أنها تنتفي بانتفاء التشبيه وعدم ذكره.

ولعل ما سبق ذكره من ألوان النعيم هنا إنما كان توطئة ومقدمة لغاية هذا النعيم المتمثل في قاصرات الطرف المشبهات بالبيض المكنون، ولذلك كان قوله تعالى: (فواكه) بدلا من قوله: (رزق)؛ فكان التفكه غاية النعيم هنا، قال الزمخشري: "يعني

---

(١) يراجع: التحرير والتنوير: ٢٣/١١٠، أبو السعود: ٥/٣٢٥.

(٢) من بلاغة القرآن، د. أحمد بدوي: ١٤٩. وينظر: خصائص التعبير القرآني، د. عبد العظيم المطعني: ٢/٢٤٣.

أن رزقهم كله فواكه؛ لأنهم مستغنون عن حفظ الصحة بالأقوات، بأنهم أجسام محكمة مخلوقة للأبد، فكل ما يأكلونه على سبيل التلذذ". (١)

وعلى ذلك فالفواكه بدل مطابق من (رزق)، والفواكه هنا غير الفواكه في قوله تعالى: (وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ . وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ) الواقعة: ٢٠-٢١؛ فهي هناك بالمعنى المعروف فلا منافاة كما قرر الآلوسي. (٢) قلت: وهذه لطائف ودقائق في التعبير القرآني يُفرق بها بين منازل ودرجات أهل الجنة، وفي ذلك دليل على أنها تقدر بمقادير دقيقة لا يقدر عليها إلا القادر العليم الحكيم (فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ) الزلزلة: ٧.

قلت: إن ما ذكر في السياق من ألوان النعيم كان يوطئ لتلك الغاية مع التشبيه الذي يحقق إيغالا في التفضيل والتكريم والتنويه؛ ولذلك قال أبو حيان: "ثم ذكر تمام اللذة الجسمانية، وختم بها كما بدأ باللذة الجسمانية من الرزق، وهي أبلغ الملاذ وهي التآنس بالنساء". (٣) هذا هو التمام، وهو غاية السكن والأنس واللذة، فجميع ما ذكر من الرزق والفواكه والإكرام الذي به انتعاش النفس، وخلوص التنعم مما يكدره، والفوز بجنات النعيم، والجلوس على سرر كعروش السلاطين والملوك، والأنس والاجتماع والسمر والشرب من عين خمر جارية خالصة من مضار خمر الدنيا، كل ذلك يحصل به تمام التمتع بالنساء، وكان عباد الله المخلصون أهلا لذلك كله.

وفي سورة الرحمن يرد الوصف بمن خاف مقام ربه، وتذكر عظائم ألوان النعيم التي تكاد تتفق في المعنى مع ما ذكر في سورة الصافات، وتنتهي كذلك بتشبيه قاصرات الطرف: (فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ . فَبِأَيِّ ءَالَآءِ

---

(١) الكشاف: ٤/٤٢. وينظر: أبو السعود: ٥/٣٢٥.

(٢) ينظر: روح المعاني: ١٢/٨٣.

(٣) البحر المحيط: ٩/١٠٠.

رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ . فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ) الرحمن: ٥٦-٦٠.

وأثبت بداية أنه قد ذكر بعد نعيم هذه الفئة قوله تعالى: (وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ) الرحمن: ٦٢، والظاهر أنهما لفئة أخرى أقل منزلة في الجنة من السابقين، وقد وُعدوا كذلك بالحور العين: (فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ . فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ) الرحمن: ٧٠-٧٢، لكن لم تتبع بالتشبيه؛ لأنها منزلة أقل، وواضحٌ أنَّ طريقة القرآن في البيان قضت بأن يكون التشبيه خاصًّا بأصحاب المنزلة العليا؛ تفريقًا بين المنازل، وزيادة تنويه وتشريف وتكريمًا لأهلها؛ لأن التشبيه في مثل هذه المعاني غرضه التزيين، مما يضفي مزيدًا من المعاني والدلالات المادية والروحية.

وتفصيل ذلك وبيانه أنه قد اجتمع في السياق ما يثبت علوَّ منزلة مَن خاف مقام ربه، وأنهم أهل للحسنى وزيادة؛ مما اقتضى التشبيه في النهاية. ومن ذلك:

● التعبير بقوله سبحانه: (ولِمَن خَافَ مَقامَ رَبِّهِ) دون (مَن خاف ربَّه) يحقق عظيم الخوف من الله – تعالى – بالكناية عن ذلك بخوف المقام؛ لأن من خاف المقام أولى به أن يخاف الله ﷻ. والكناية تؤكد ثبوت مقام المراقبة؛ لأنها دعوى ببينة، وتلك هي منزلة الإحسان التي ختم بها السياق تصريحًا بعد تلميح، والإحسان هو أن تعبد الله كأنك تراه كما ورد في الصحيح، وهي المنزلة العليا. فهذا الصنف يراقب ربه الحافظ المهيمن، "فلا يجسر على المعصية، أو يخاف مقامه الذي يقف فيه العباد للحساب." [1] فمراقبته تشمل الدنيا بالاجتهاد في الطاعات وترك المعاصي والمنكرات، وتتصل بالآخرة وما فيها من مواقف ومكاشفات.

([1]) البحر المحيط: ٦٧/١٠ بتصرف. ويراجع: الطبري: ٥٥/٢٣-٥٧.

وعلى الرغم مما قيل من أنَّ الإضافة هنا تنبيه على صعوبة الموقف [1]؛ إلا أن الجملة تجمع بين الخوف المتمثل في الفعل (خاف) والرجاء المتمثل في التعبير بـ (الرب) خاصة، بما فيه من معاني الإنعام والإحسان والفضل، مما يتسق مع حال هذا المراقب الخائف، والذي خوفه ليس كالخوف من الأسد مثلا، قال الآلوسي: "والخوف في الأصل توقع مكروه عند أمارة مظنونة أو معلومة، ويضاده الأمن. قال الراغب: والخوف من الله–تعالى–لا يراد به ما يخطر بالبال من الرعب كاستشعار الخوف من الأسد بل إنما يراد به الكف عن المعاصي وتحري الطاعات، ولذلك قيل: لا يعد خائفًا من لم يكن للذنوب تاركًا، ويؤيد هذا تفسيرُ ابن عباس – رضي الله تعالى عنهما – الخائفَ هنا بمن ركب طاعة الله تعالى وترك معصيته، وقولُ مجاهد: هو الرجل يريد الذنب فيذكر الله تعالى فيدع الذنب". [2]

● التعبير بـ (مقام) في صدر السياق وبدايته ودلالته على زيادة في المعنى وعلو منزلتهم في العبودية، يتسق نظما ودلالة مع ما ورد في ختام السورة من إسناد الفعل (تبارك) إلى (اسم)؛ إذ فيه مراعاة ما عُدِّد من نعمٍ لا تحيط بها العبارة، فعبر عنه بهذه

---

(1) ينظر: المحرر الوجيز: ٢٣٣/٥، البحر المحيط: ٦٧/١٠.

(2) روح المعاني: ١١٥/١٤. ومن رحمة الله ولطفه ما يظهر في تتمة نص الآلوسي: " وقد يقال: إن ارتكاب الذنب قد يجامع الخوف من الله –تعالى– وذلك كما إذا غلبته نفسه ففعله خائفا من عقابه تعالى عليه، وأيد ذلك بما أخرجه أحمد والنسائي وغيرهما عن أبي الدرداء «أن النبي –صلى الله تعالى عليه وسلم– قرأ هذه الآية (وَلِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ جَنَّتانِ) فقلت: وإن زنى وإن سرق يا رسول الله؟ فقال النبي عليه الصلاة والسلام: الثانية (وَلِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ جَنَّتانِ) فقلت: وإن زنى وإن سرق؟ فقال الثالثة: (وَلِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ جَنَّتانِ) فقلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: نعم وإن رغم أنف أبي الدرداء»." روح المعاني: ١١٥/١٤–١١٦.

المبالغة، إذ هي أقصى ما تسمح به اللغة في التعبير، ليعلم الناس أنهم محقوقون لله تعالى بشكر يوازي عظم نعمه عليهم. (١)

وكما قيل: إنَّ (مقام) مُقحَمٌ والأصل: خاف ربَّه، قيل: إنَّ (اسم) مُقحَمٌ والأصل: تبارك ربك؛ لكن في الإقحام زيادة في المعاني، ولذلك فإن إسناد البركة بمعنى الكثرة والزيادة إلى الاسم دون المسمى تدل على مبالغة في تعظيم المسمَّى عن طريق الكناية، كما في إيقاع الخوف على المقام أولًا من مبالغة في إجلال الله -تعالى-، وهذا من ألطف دلائل الإعجاز.

كما أنَّ صيغة التفاعل تفيد المبالغة في الثناء بالخير والنفع العظيم؛ لأن فعلها غير صادر من اثنين.(٢) فالختام متسق مع صدر السياق من الدلالة على مزيد التكريم والعطاء والجمع بين الخوف والرجاء إذا لوحظ الوصفان (الإجلال والإكرام)، بما في الأول من الجلال والهيبة والعظمة، وما في الثاني من الإحسان والعطاء والتفضل.

● قوله تعالى: (جنتان) دليل على مضاعفة الثواب وتكثيره لتلك الطبقة الخاصة، وأنهم أهل للزيادة. وذلك سواء فسرت (الجنتان) بالتثنية؛ إذ يلزم من أنَّ لكل خائف جنتان تعددُ الجنان، أم بالجمع لعود الضمير في (فيهن) بالجمع؛ إذ الجنتان جنات في المعنى، والجنتان تدل على جنات هي للخائفين، فالمراد أنَّ لكل خائفين من الثقلين جنتان، أو المراد جنسان من الجنات، أو أن التثنية مستعملة كناية عن التعدد، وإيثار

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير: ٢٧/٢٧٦-٢٧٧. ويراجع: الرازي: ٢٩/٣٨٣، البحر: ١٠/٧٢، نظم الدرر: ٧/٤٠٠-٤٠١، إرشاد العقل السليم: ٦/١٨٣.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير: ٢٧/٢٧٦.

صيغة التثنية هنا لمراعاة الفواصل السابقة واللاحقة فقد بنيت قرائن السورة عليها. [1] واحتمال المعاني وكثرتها شاهد فضل ونعيم وتكريم لا حد له.

ثم إن التنكير (جنتان) –مقابلا بالتعريف قبل في قوله: (هذه جهنم)– فيه "إشارة إلى كثرة المراتب التي لا تحد ونعمه التي لا تعد، وليعلم أن آخر العذاب جهنم، وأول مراتب الثواب الجنة ثم بعدها مراتب وزيادات". [2]

● حَمْلُ قوله (خاف) على لفظ (مَن) أولا فجاء بالإفراد–قبل حَمْلِهِ على المعنى ثانيا في (متكئين)–إشارة إلى بُعد المنزلة وعظيم الرتبة والنعيم المضاعَف، بما فيه من النصِّ على أنَّ ذلك الجزاء هو جزاء الواحد منهم. وقرر البقاعي أن فيه إشارة إلى قلة الخائفين. [3]

● قوله تعالى: (ذواتا أفنان) في وصف الجنتين هنا، وهو ما لم يرد في الأخريين، فضلا عما في صيغة (ذواتا) دون (ذاتا)–مع صحتها قياسا–من دلالة الجمع على الكثرة والزيادة، وكذلك كثرة المعاني والدلالات التي تحتملها (أفنان) من: الأغصان، الظلال، الألوان، ألوان الفواكه، ألوان النعم، أو ذواتا فضل وسعة على ما سواهما.

---

(١) يراجع: الكشاف: ٤/٤٥٢، المحرر الوجيز: ٥/٢٣٣، الرازي: ٢٩/٣٧٤–٣٧٥، البيضاوي: ٩/٥٧–٥٨، البحر: ١٠/٦٧، الآلوسي: ١٤/١١٧، الطاهر: ٢٧/٢٦٤. ويتضاعف النعيم والثواب أكثر إذا اعتبرت (دون) في (ومن دونهما جنتان) بمعنى (غير)؛ فتزداد جنات الخائفين إلى أربع، دون اعتبار فريق آخر، وهذا من قبيل (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة). يراجع: الرازي: ٢٩/٣٨٠.

(٢) مفاتيح الغيب: ٢٩/٣٦٩.

(٣) نظم الدرر: ٧/٣٩٣.

قال الزمخشري: "وخص الأفنان بالذكر وهي الغصنة التي تتشعب من فروع الشجرة؛ لأنها هي التي تورق وتثمر، فمنها تمتد الظلال، ومنها تُجنَى الثمار". (١) فيفهم بذلك أنها أفنان تورق وتثمر ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين. وأولُ وصف للجنتين الأخريين (مدهامتان) ولم يوصفا بمثل ما هنا فرقا بينهما في المنزلة، وقرر الزمخشري وغيره (٢) في الموازنة بين الأوليين والأخريين أنَّ (مدهامتان) دون (ذواتا أفنان)، قال البيضاوي: " (مدهامتان) خضراوان تضربان إلى السواد من شدة الخضرة، وفيه إشعار بأن الغالب على هاتين الجنتين النبات والرياحين المنبسطة على وجه الأرض، وعلى الأوليين الأشجار والفواكه، دلالة على ما بينهما من التفاوت". (٣) فضلا عما في احتمال (ذواتا أفنان) معاني كثيرة، بخلاف (مدهامتان) التي تركزت دلالتها في اللون، ناهيك عن كون غالب نباتها أرضي منبسط، والأول علويٌّ متشعب.

وكذلك وصف الأوليين–اللتين أعدتا للمقربين–بقوله تعالى: (وجنى الجنتين دان) غير موجود في الأخريين اللتين لأصحاب اليمين، ففيه نصٌّ على مزيد تكريم بأنهم يجتنون من ثمار الجنتين بلا تعب ولا عناء، لقربه منهم على أية حال، فضلا عما في البديع (الملحق بالجناس) من زينة وجمال تتناسبان مع الزينة التي حققها وأكدها التشبيه في نهاية السياق.

---

(١) الكشاف: ١٧/٦. ويراجع: الطبري: ٥٨/٢٣–٦٠، البغوي: ٤٣١/٤.

(٢) يراجع: الكشاف: ١٩/٦، الرازي: ٣٨٠/٢٩.

(٣) البيضاوي: ٦٠/٩. كما قيل: إن جري العينين في الأوليين يزيدهما فضلا، والنضخ دون الجري، وقوله: (فيهما فاكهة) دون (من كل فاكهة)–أي تعلمونها أولا تعلمونها كما فهم البقاعي–، والاتكاء على ما بطائنه من ديباج وهو الفرش، خير من الاتكاء على الرفرف، وهو كسر الخباء، والفرش المعدة للاتكاء أفضل، والعبقري: الوشي، والديباج أعلى منه، والمشبه بالياقوت والمرجان أفضل في الوصف من خيرات حسان. يراجع: البحر: ٧٠/١٠، نظم الدرر: ٣٤٩/٧.

● ثمة إشارة في مرجع الضمير في قوله تعالى: (فيهن) في السياقين، فالأول مع الأوليين سبقه آلاء أكثر من الثاني، ويحتمل أن يعود إليها جميعا–لا إلى مجرد الجنتين لجمع الضمير–فيمكن عوده في الأوليين إلى الجنتين، الأفنان، العينين، الفاكهة، الفرش، فيمكن أن يتمتع أهل هذا النعيم بالنساء في جميع هذه المواضع على حالات مختلفة تحصل بها اللذة كما يشاءون، بخلاف عوده على أقل من ذلك في الأخريين.

● الفصل بين صفات الأوليين (ذواتا أفنان – فيهما عينان تجريان – فيهما من كل فاكهة زوجان) بقوله تعالى: (فبأي آلاء ربكما تكذبان) فيه تكثير للمعاني والنعم التي تنتظر أهل الخوف من مقام الله–تعالى–، وقال الرازي: "فيه تغليب جانب الرحمة؛ فإنَّ آيات العذاب سردها سردا وذكرها جملة ليقصر ذكرها، والثوابُ ذكره شيئا فشيئا؛ لأنَّ ذكره يطيب للسامع، ولأنَّ إعادة ذكر المحبوب محبوب، والتطويل بذكر اللذات مستحسن". [1] قلت: وهو مناسب للتطويل بإيراد تشبيه قاصرات الطرف؛ ومن ثم شُبهت هنا بأمرين (الياقوت والمرجان).

● قال تعالى–في نساء الأوليين–: (قاصرات الطرف) أي قصرن نظرهن على أزواجهن، بصيغة اسم الفاعل، فهن يقصرن طرفهن بأنفسهن، وهو ما يتقاصر عن وصف نساء الأخريين بقوله سبحانه: (حور مقصورات في الخيام) فهو وإن دل على العظمة والستر إلا أنَّ في صيغة اسم المفعول إشارة إلى أنهن خدرهن خادر لهن

---

(١) الرازي: ٣٧٢/٢٩. ولغرض الإطناب في التحسين أيضا عُبر عن البكارة بقوله: (لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان). ينظر: التحرير والتنوير: ٢٧٠/٢٧.

غيرهن، كالذي يضرب الخيام ويدلي الستر، بخلاف مَن تتخذه لنفسها وتغلق بابها بيدها. (١)

ويمكن أن يُضم معنى الستر والصون والحفظ إلى معنى العفة والحياء في (قاصرات الطرف)، ويُفاد ذلك من التشبيه بالياقوت والمرجان، فيتعدد الوجه ويتنوع بين الحسن والصفاء والحمرة والبياض، وكذلك الصون والحفظ، وبذلك يجتمع فيهن ما في المقصورات وتفضلن بالعفة والحياء.

كما أنّ في الوصف الأول مدحًا بالعفة وتزيينًا بالحياء، وهما أعلى طلبًا وأشد رغبة وأكثر شغفًا لمن يبغي التلذذ بالنساء، وتأتي العظمة والتستر تبعًا. ويكاد الجانب الروحي يغلب في القاصرات عن المقصورات.

● في تقديم (متكئين) على ذكر (قاصرات الطرف) أولا، وتأخيره مع ذكر (حور مقصورات في الخيام) ثانيا نوع تفضيل آخر للأوليين؛ ففيه أولا ما سبق من تكثير ما عاد عليه الضمير في قوله: (فيهن) فكان خمسا، بخلاف الأربع في الأخريين. كما أن تقديم (متكئين) مع الأوليين جعل ختامَ النِّعَم في (قاصرات الطرف) ووصفهن بجملة التشبيه، وكان التشبيه آخر ما بقي في السمع فتمكن فضلَ تمكُّن، ناهيك عن اتصال

---

(١) الرازي: ٣٧٦/٢٩. وقال الآلوسي: " ثم إن قاصرات الطرف إن كنّ من الإنس فهنّ أجل قدرًا وأحسن منظرًا من الحور المقصورات في الخيام، بناء على أنهن النساء المخلوقات في الجنة. فقد جاء من حديث أم سلمة «قلت يا رسول الله: أنساء الدنيا أفضل أم الحور العين؟ قال: نساء الدنيا أفضل من الحور العين كفضل الظهارة على البطانة. قلت: يا رسول الله وبم ذاك؟ قال: بصلاتهن وصيامهن وعبادتهن، ألبس الله وجوههن النور وأجسادهن الحرير، بيض الوجوه خضر الثياب صفر الحلي، مجامرهن الدر وأمشاطهن الذهب، يقلن: ألا نحن الخالدات فلا نموت أبدا، ألا ونحن الناعمات فلا نيأس أبدا، طوبى لمن كنا له وكان لنا» إلى غيره من الأخبار ويكون هذا مؤيدًا للقول بتفضيل الجنتين الأوليين على الأخيرتين". ١٢٥/١٤.

التذييل بقوله: (هل جزاء الإحسان إلا الإحسان) بالنساء وبالتشبيه، وكأن في ذلك إشارة إلى أن النساء هن غاية النعيم إذا كنَّ بهذه الصفات.

● في التشبيه بالياقوت والمرجان صفات أخرى يكتسبها المشبه (قاصرات الطرف) ويتنعم بها صاحبهن، من ذلك العزة والنفاسة، سكون النفس، قوة القلب، شدة البدن، وغير ذلك من صفات للياقوت والمرجان. [1]

وبذلك يُفهَم أن التشبيه في نهاية هذا السياق دال على علو منزلة من أعدت له تلك الجنان، وهو من خاف مقام ربه، فزِيد له في النعيم وضُوعف له في الآلاء، وكان التشبيه من طرائق هده الزيادة، تزيينا وإطنابا في التحسين، بعد إضافة دلالات معنوية ومادية كثيرة.

وتبقى إشارة دقيقة لطيفة في سر الإتيان بالتشبيه من عدمه؛ تتمثل في أنه لم يُؤت بالتشبيه في قوله: (حور مقصورات في الخيام)؛ تناسبا مع تسترهن وخفائهن؛ فهن غير معلومات الصفة، فكيف تُشبَّه من هي مستورة في الخيام لا تُرى؟ إن في التشبيه إعلانا وإظهارا واشتهارا، وهو ما يتنافي مع المقصورات في الخيام.

بخلاف قوله سبحانه: (فيهن قاصرات الطرف) الذي ناسب دلالته التشبيه وتَطلَّبه، وضاعف معنى العفة والحياء؛ إذ أن دلالة قصر الطرف على الأزواج تستلزم الخروج والتعرض لغير الزوج، ثم مجاهدة النفس في غض الطرف، والظهور والخروج يسيغ التشبيه الذي يضفي على الدلالة معاني أخرى تضاعف الحسن وتكشف عن بعد الرتبة.

إن التعرض للفتن ومجاهدة النفس وكفها وترويضها فيه من المشقة ما ليس في التستر وإيثار العزلة أو الإكراه عليها، والدرجات على قدر المشقات.

([1]) نظم الدرر: ٧/٣٩٥.

فما أعظم هذا التناسب البديع والإعجاز الظاهر القاهر؛ فلما كان قصر الطرف أولا دليلا على الخروج والظهور تأتّى التشبيه وتطلبه السياق، ولما كان القصر في الخيام ثانيا دليلا على عدم الخروج اقتضى ذلك عدم التشبيه؛ تناسبا مع التستر والخفاء.

ولا ريب أن في معاني الآخرة دروسا نستظل بأفيائها ونسترشد بها في أمور الحياة الدنيا وأحكامها التي تتنوع ويكثر فيها الخلاف؛ ولعل في تلك الإشارة الدقيقة أن المرأة التي تخرج من بيتها لضرورة وتجاهد نفسها وتغض طرفها، أعلى في المنزلة من غيرها.

وفي سورة الواقعة نجد التشبيه حاضرًا كذلك في جانب ذكر نعيم (السابقين) [(١)]؛ فقال سبحانه: (وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون)، وسببا إيراد التشبيه السابق ذكرهما في الصافات والرحمن متحققان هنا كذلك؛ فثمة خصوصية في وصف هذا الفريق بالسابقين، واشتمال النظم الشريف على ما يفيد أنهم أهل المنزلة العليا والنعيم الذي دونه كل نعيم، كما يتضح القصدُ إلى المقارنة بين صنوف ثلاثة من الناس وبيان ما أعد لكل فريق من النعيم أو العذاب، وهو ما نص عليه مطلع السورة الشريفة في قوله تعالى: (وكنتم أزواجا ثلاثة).

---

(١) تعددت الأقوال في المراد بالسابقين؛ وذلك لإطلاق الوصف، فقيل: هم الذين سبقوا إلى الإيمان بالله ورسوله، وهم المهاجرون الأولون. وقيل: الذين صلوا للقبلتين. وقيل: أولهم رواحًا إلى المساجد وأسرعهم خفوقًا في سبيل الله. وقيل: المسارعون إلى التوبة وإلى أعمال البر. وقيل: السابقون إلى كل ما دعا الله إليه. وقيل: السابقون إلى كل خير. وقيل: الأنبياء. وقيل: من ابتكروا الخير في حداثة سنهم وداوموا عليه حتى خرجوا من الدنيا. ولعل الأخير هو الأقرب بالنظر إلى التقسيم في قوله تعالى: (فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله) فاطر: ٣٢. ينظر: الطبري: ٢٣/٩٥-٩٧، البغوي: ٥/٦، الكشاف: ٦/٢٢، البيضاوي: ٩/٦٧، البحر: ١٠/٧٩، التحرير والتنوير: ٢٧/٢٨٦-٢٨٧.

وكما سبق أن سجلت في آية سورة الرحمن أعيد هنا أنَّ طريقة القرآن في البيان قضت بأن يكون التشبيه خاصًّا بأصحاب المنزلة العليا؛ تفريقا بين المنازل، وزيادة تنويه وتشريف، وتكريمًا لأهلها؛ لأن التشبيه في مثل هذه المعاني غرضه التزيين، مما يضفي مزيدًا من المعاني والدلالات المادية والروحية.

فقد ورد تشبيه الحور العين في جانب نعيم السابقين، وخلا نعيم أصحاب اليمين من تشبيه النساء، إشارة إلى الفرق والتفاوت بين الفِراشين، كما أشارت خصائص النظم الشريف ودلالات المفردات والمعاني إلى هذا التفاوت، وهو ما عني ببيانه السادة المفسرون، ومن جماع أقوالهم في بيان الفرق بين نعيم السابقين ونعيم أصحاب اليمين: "كأنه لما شبه حال السابقين في التنعم بأعلى ما يتصور لأهل المدن، شبه حال أصحاب اليمين بأكمل ما يتمناه أهل البوادي إشعارًا بالتفاوت بين الحالين".[1] ويخلص المقام الآن إلى سرد دلائل النظم الشريف على رفع قدر السابقين وتنعيمهم بما هو أفخم وأعظم من نعيم أصحاب اليمين، وتشمل هذه الدلائل وصف السابقين والتعبير عنه، كما تشمل طرفا من ألوان النعيم وطرائق الصياغة وخصوصيتها، فمن ذلك:

- تغير سلك النظم الشريف في إفادة التعجيب من حال السابقين، فلم يأت على طريقة (والسابقون ما السابقون) كما ورد في أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة، ويستلزم ذلك تفاوتا يثبت مكانة عالية وقدرًا رفيعًا للسابقين.

وقد عني المفسرون ببيان هذا التفاوت؛ فأشار الزمخشري إلى ذلك بقوله: " والمعنى: أي شيء هم؟ والسابقون السابقون، يريد: والسابقون من عرفت حالهم

---

(١) البيضاوي: ٩/٧٠-٧١. وينظر: الإرشاد: ٦/١٨٩.

وبلغك وصفهم، كقوله وعبد الله عبد الله. وقول أبى النجم: "وشعري شعري"، كأنه قال: وشعري ما انتهى إليك وسمعت بفصاحته وبراعته." (١)

فكلام الزمخشري يشتمل على إشارة تجيب عن الفرق بين الصياغتين وأنها تثبت تعظيمًا أكثر للسابقين، ويأتي ابن المنير ويزيد كلام الزمخشري وضوحًا فيقول:

" لكن بقي التنبيه على المخالفة بين المذكورين في السابقين وفي أصحاب اليمين، مع أن كل واحد منهما إنما أريد به التعظيم والتهويل لحال المذكورين، فنقول: التعظيم المؤدى بقوله: (السَّابِقُونَ) أبلغ من قرينه، وذلك أن مؤدى هذا أن أمر السابقين وعظمة شأنه ما لا يكاد يخفى، وإنما تحير فهم السامع فيه مشهور. وأما المذكور في قوله: (فَأَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ ما أَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ) فإنه تعظيم على السامع بما ليس عنده منه علم سابق، ألا ترى كيف سبق بسط حال السابقين بقوله: (أُولئِكَ الْمُقَرَّبُونَ) فجمع بين اسم الإشارة المشار به إلى معروف، وبين الإخبار عنه بقوله: (الْمُقَرَّبُونَ) معرفا بالألف واللام العهدية، وليس مثل هذا مذكورًا في بسط حال أصحاب اليمين، فإنه مصدر بقوله: (فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ)." (٢) فالتعبير يفيد أن أمر

---

(١) الكشاف: ٦/٢٢-٢٣.

(٢) الانتصاف (بهامش الكشاف): ٦/٢٢-٢٣. ويراجع: الرازي: ٢٩/٣٩٠، الآلوسي: ١٤/١٣٣. ويقول الطاهر: " فمآل جملة (ما أصحاب الميمنة) ونظيرتها وجملة (والسابقون السابقون) هو التعجيب من حالهم، وطريقه هو الكناية ولكنَّ بين الكنايتين فرقا بأن إحداهما كانت من طريق السؤال عن الوصف، والأخرى من طريق تعذر التعبير بغير ذلك الوصف. والمعنى: أن حالهم بلغت منتهى الفضل والرفعة، بحيث لا يجد المتكلم خبرًا يخبر به عنهم أدلَّ على مرتبتهم من اسم (السابقون)، فهذا الخبر أبلغ في الدلالة على شرف قدرهم من الإخبار بما الاستفهامية التعجيبية في قوله: (ما أصحاب الميمنة)، وهذا مثل قول أبي الطمحان القفيني: (وإني من القوم الذين همو همو إذا مات منهم سيد قام صاحبه) مع ما في اشتقاق لقبهم من «السبق» من الدلالة على بلوغهم أقصى ما يطلبه الطالبون". التحرير والتنوير: ٢٧/٢٨٧.

السابقين لا يخفى سواء من ناحية ما سبقوا به، أم من ناحية أنهم بلغوا الغاية في النعيم والسعادة، وهي غاية تؤدي بالمتفكر إلى التحير والذهول.

ويدل على ذيوع أمر السابقين واشتهار حالهم وعظمة شأنهم تكرير الإخبار عنهم بما يفيد القصر في قوله تعالى: (أولئك المقربون) عن طريق تعريف الطرفين.

● خصوصية الوصف بالسابقين – كما نبهت سابقا – تقتضي مزيدًا من الفضل والنعيم؛ لأنهم أهل أعمال خاصة ومنازل خاصة، والخصوصية تتحقق بالأعمال المكتسبة أو بمقادير ملكوتية أو هما معا، فكما اتضح من خصوصية (المخلصين) – بفتح اللام– في الصافات، وأنهم مَن أخلصهم الله لعبادته وطاعته، تتضح الخصوصية هنا في (السابقون) حين نربط ما هنا –بما فيه من الأزواج الثلاثة– بقوله تعالى: (فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ) فاطر: ٣٢، فهم سبقوا بإذن الله وتوفيقه وإنعامه وإرادته واصطفائه لهم.

● كثرة الآيات التي فصَّلت نعيمَ السابقين، وقلة آيات نعيم أصحاب اليمين بالنسبة إلى هذه الكثرة، فضلا عن أنواع النعيم وتباينها؛ فأول نعمة كانت للسابقين هي قربهم المطلق–وما أبعدها من نعمة وغاية ومنزلة–، وهو ما لم يوجد في نعيم أصحاب اليمين.

ثم النص على أنهم (في جنات النعيم) بهذا الجمع المفيد للكثرة، وكذلك التعريف المناسب لذيوع أمرهم واشتهار حالهم. والفرش المرفوعة دون السرر الموضونة، وأثبت الاتكاء للسابقين دون أصحاب اليمين، وكذلك طواف الولدان المخلدين بألوان من الشراب والأكواب والأباريق والكئوس، ولم يرد لحم الطير كذلك في جانب أصحاب اليمين.

وقوله تعالى: (وفاكهة مما يتخيرون) في جانب السابقين، دون قوله: (وفاكهة كثيرة) من حيث الفضل والإعظام، ففي التخير نوع تكريم وتشريف وتقرير المنزلة العالية.

ثم إنَّ التخير من باب التكلف فكأنهم يأخذون ما يكون في نهاية الكمال، وهذا لا يوجد إلا ممن لا يكون له حاجة ولا اضطرار. [١]

● التصريح بالحور العين في جانب السابقين والتطويل في الوصف والتزيين بالتشبيه، وزيادة تأكيد التشبيه بإدخال الكاف على أمثال، بخلاف عدم التصريح بلفظ الحور أو ما في معناه في جانب أصحاب اليمين فقال سبحانه: (إنا أنشأناهن إنشاء) حتى اختلف في عود الضمير وكذلك في كونهن من نساء الدنيا أو حور الجنة.

● ختم نعيم السابقين بقوله تعالى: (لا يسمعون فيها لغوًا ولا تأثيمًا إلا قيلًا سلامًا سلامًا)، وهو ما لم يرد في جانب أصحاب اليمين أولًا، ثم إنه نعيم روحي ختم لهم به كما افتتح نعيمهم بما هو روحي أيضًا (المقربون)، فضلًا عما في دلالة استثناء السلام من اللغو على عظيم المشقة التي بلغت بالقوم هذه المنزلة العالية؛ إذ الجزاء من جنس العمل؛ لأن التحلي بهذا الوصف أمر عسير ومطلب صعب لا يناله إلا المقربون، واستثناء السلام من اللغو –وليس من جنسه– يصور التناقض والمشقة، فصورة الاتصال تدل على استحقاقهم السبق للجمع بين النقيضين، وحقيقة الانقطاع تدل على بعد ما بين اللغو والسلام وصعوبة مقابلة اللاغين والجاهلين بالسلام، إلا من وفقه الله واصطفاه لذلك. وقد أوسعت ذلك شرحا في بحث (الاستثناء المنقطع في القرآن الكريم– مدخل إلى بلاغته)[٢]، وتناول الشرح والتحليل جميع مواضع استثناء اللغو من السلام في القرآن الكريم، والانتهاء إلى معنى واحد وسر جامع بين المواضع كلها.

---

(١) الرازي: ٣٩٦/٢٩.

(٢) ينظر: مجلة كلية اللغة العربية بإيتاي البارود، عدد (٢٥) عام ٢٠١٢ م:٢/ ١٤٧٨–١٥٠٩.

فذلك وغيره كثير مما يدل على تفاوت ما بين السابقين وأصحاب اليمين، اقتضى تشبيه الحور العين بأنهن أمثال اللؤلؤ المكنون في صفاء بياضهن وحسنهن، وقيد اللؤلؤ بالمكنون لأنه أصفى لونًا وأبعد من التغير، فيبقى صفاؤه ونقاؤه دائمًا. (١)

كما يثبت الوصف وتقييد المشبه به بالمكنون معنى الستر والصون والعفاف والنفاسة والعزة، بجانب معاني الجمال والبياض والصفاء والنقاء.

ثانياً: سياقات عدم التشبيه:

تبين من التفصيل السابق أسباب إتباع ذكر نساء الجنة بالتشبيه في المواضع الثلاثة، وأنها ترتكز على خصوصية الوصف الذي استحقت به تلك الفئة هذا النعيم وأنهم من أهل المنازل العليا المقربين المكرمين المخلصين، كما ترتكز على خصوصية السياقات وبنائها على المقارنة بين صنوف وأنواع مختلفة وإثبات الفضل والرفعة لطبقة على أخرى، فضلا عن خصوصية موضع سورة الصافات وتأسيس المقارنة بين الصنفين على الفتنة وعدمها في عد ألوان النعيم والعذاب.

كان للتشبيه في تلك السياقات حضور قوي ومؤثر ومتسق مع الغرض الأصلي المقصود.

أما سياقات عدم تشبيه نساء الجنة –وهي تسعة– فتكاد تخلو من الأسباب السابقة التي استدعت التشبيه؛ ومن ثم خلت من ذكره.

● وهذا واضح في موضع سورة الرحمن (حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ) وموضع سورة الواقعة (إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاء . فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً)؛ لأنهن هنا وقعن في مقارنة مع فئات وطبقات ذات منزلة عالية (من خاف مقام ربه، السابقون)، وكان التشبيه

---

(١) ينظر: الطبري: ١٠٧/٢٣، البغوي: ٧/٥، ابن عطية: ٢٤٣/٥، البيضاوي: ٧٠/٩، البحر: ٨١/١٠.

مثبتا مزيدا من الفضل والتكريم والتحسين والتزيين والإطناب في عدِّ ألوان النعيم، ومن ثم خلا الموضعان من التشبيه، كما سبق تفصيله.

● أما مواضع البقرة وآل عمران والنساء فليس فيها هذا التفصيل الطويل في عد ألوان النعيم، كما لا توجد تلك المقارنة الواضحة الصريحة التي تحققت في الرحمن والواقعة، كما تنتفي خصوصية الوصف التي تستدعي مزيدا من عدِّ ألوان النعيم والإطناب في ذكرها والتفنن فيها، فالموعودون والمبشَّرون هنا هم (الذين آمنوا وعملوا الصالحات) أو (الذين اتقوا).

بالإضافة إلى اشتراك المواضع الثلاثة في التعبير عن نساء الجنة بالأزواج المطهَّرة، واللفظتان لم تردا في مواضع التشبيه؛ ولعل سرَّ ذلك يرجع إلى خصوصية لفظ الزوج وأن الرجل يغار من أن تُذكر زوجُه ولو بما يَسُرُّ ويُفرح، أو يُكشف سِترها أو يُتغزّل بها وببيان حُسنها، فكان الاكتفاء بوصفهن (مطهَّرة) مغنيًا عن التشبيه الذي يُحدث نوعا من الكشف والشهرة، بل إن هذا الوصف يحقق مزيدًا من الستر والتحفظ؛ فهنَّ مطهراتٌ من كل عيب معنوي نفسي أو مادي جسدي.

وهذا التوجيه يستقيم على اعتبار أنَّ لأهل الجنة أنواعًا مختلفة من النساء: الأزواج، الحور العين، المقصورات، الجواري الطوَّافات...؛ حتى لا يتعارض هذا التوجيه مع ما قيل في أسباب التشبيه في المواضع الثلاثة وأنه كان لأصحاب المنازل العليا والصفات الخاصة، فقد يكون لأصحاب تلك المنازل أزواج مطهرة مثل ما هنا؛ لدخولهم في عموم الذين آمنوا وعملوا الصالحات والمتقين، ثم يمتازون بنساء من نوع خاص سبق وصفهم؛ إثباتًا لفضلهم وتحقيقًا لعظيم منزلتهم.

● أما مواضع ص والدخان والطور والنبأ، فقد خلت من التشبيه كذلك لأنها لا تتحدث عن طوائف خاصة من أهل الجنة كما سبق تفصيله؛ فالحديث في هذه السُّوَر الأربعة عن المتقين وهو وصف عام وفيه نوع إطلاق، وهو بعيد عن التخصيص

بوصف محدَّد؛ ومن ثم لم يرد تشبيه نساء الجنة هنا لإبراز التفاوت بين هذا النعيم ونعيم أصحاب الصفات الخاصة، وإشعارًا بعظيم منزلة أهل تلك المنازل الرفيعة.

ومما يدعم ذلك عدمُ تفصيل النعيم في سورة ص واقتصارُه على قوله سبحانه: (جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ . مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ . وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ) ص:٥٠-٥٢.

ثم إن هذا الجزاء الخاص بالمتقين جاء بعد ذكر عطاءات الله -تعالى- لبعض أنبيائه (داود-سليمان-أيوب-إبراهيم-إسحاق-يعقوب-إسماعيل-اليسع-ذو الكفل) وتفضلِه سبحانه عليهم بما استحقوا به الاصطفاءَ من النبوة والإنابة والخلافة والعلم والحكمة والمُلك والعبودية والمعجزات والصبر على عظيم الابتلاءات...؛ فهؤلاء الأنبياء والرُّسُل-عليهم السلام-هم الخاصة في هذا السياق، وكان ذكر المتقين بعدهم دليلَ نزول مرتبتهم؛ فلم تُفصَّل ألوان النعيم ولم تتعدد، وكذلك لم يُؤتَ بتشبيهٍ لقاصرات الطرف تناسبًا مع هذا القصد من الحد في ذكر صنوف النعيم.

● وسياق سورة الدخان عن المتقين أيضا، وليس عن أهل منزلة وصفات خاصة، والتركيز في السياق على نعمة الأمن؛ لذلك بدأ بقوله تعالى: (إن المتقين في مقام أمين) الدخان: ٥١، بعد تقرير أن شجرة الزقوم هي طعام الأثيم وتشبيهها بالمهل الذي يغلي كغلي الحميم، فجاء هذا الاستئناف مثبتًا أهمَّ نعمة - بعد ذكر هذا اللون من العذاب وفتنته - وهي نعمة الأمن، وكلُّ ما ذكر بعد ذلك كان تقريرًا له وسبيلًا إليه، من الجنات والعيون واللباس والتزويج بالحور العين والفاكهة، ثم ختم بتقرير الأمن كذلك بطريق الكناية عن ذلك بالوقاية من الجحيم (وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ) الدخان: ٥٦، وأن ذلك فضل الله وهو الفوز العظيم.

وبالنظر في طبيعة هذا السياق ودلالاته ندرك عدم حاجته إلى تشبيه الحور العين؛ لأن التزيين والإطناب في التحسين ليس مطلوبًا هنا، بل المطلوب مجرد إثبات الأمن والسكينة -بخلاف سياقات التشبيه التي تجاوز أهلها تلك المرحلة- ومن ثم

أتي بلفظ (وزوجناهم) ولم يُؤت بالتشبيه، وطريقة القرآن عدم اجتماع التشبيه مع لفظ التزويج كما سبق.

إنَّ ما هنا هو آخر ما نزل بشأن شجرة الزقوم بعد التعريف بها في سورتي الصافات والواقعة – كما سيأتي تفصيله في المبحث الخاص بها– وقد بلغت الفتنة هنا مداها، وبولغ فيها عن طريق أساليب عديدة، منها إيراد تشبيهين، وابتداء الحديث عنها وتأخير الحديث عن المتقين، وإفراد الأثيم لتجسيد الإحساس بالوحشة ومضاعفة الألم بانفراده بالعذاب...؛ فكان الأمن والنجاة للمتقين بعد ذلك هو المقصود الأول والفوز العظيم، ومن ثم تركز نعيمهم حول هذا الأمر (الأمن)، والنجاة من تلك الفتنة، ولذلك لم يُؤت بالتشبيه.

● وكذلك في سياق سورة الطور، الحديث عن المتقين بدون تفصيل في ألوان النعيم، قال الحكيم العليم: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَعِيمٖ . فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ وَوَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ . كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ . مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٖ مَّصۡفُوفَةٖۖ وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ﴾ الطور:١٧–٢٠. ثم إنَّ دلالة التزويج هنا تباعد بين إيراد التشبيه كما سبق بيانه.

ولا يعكر على هذا التوجيه إيراد الغلمان في سورة الطور متبوعة بالتشبيه في قوله تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ غِلۡمَانٞ لَّهُمۡ كَأَنَّهُمۡ لُؤۡلُؤٞ مَّكۡنُونٞ﴾ الطور: ٢٤؛ لأنَّ ذلك سياقٌ آخر مستأنف لبيان حال طائفة أخرى، وهم مَن عُبِّر عنهم بقوله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ﴾ الطور: ٢١؛ فأرى–والله أعلم بمراده–أن الآية ليست اعتراضا، بل هي استئناف لذكر حال جماعة أخرى ذات صفات معينة وألوان محددة ومختلفة من النعيم، ويؤكد ذلك أنه قد ذُكر (فاكهين) قبلُ مع المتقين، ثم ذُكر بعدُ قولُه–في نعيم الجماعة الأخرى–: (وأمددناهم بفاكهة)، كما ذُكر قبلُ قولُه: (كلوا واشربوا) وذُكر بعدُ قولُه: (ولحم مما يشتهون يتنازعون فيها كأسًا).

فهذه حال المؤمنين الذين اتبعتهم ذريتهم بإيمان، ألحقوا بهم في الجنان، وأنعم الله عليهم جميعا بتلك الصنوف والألوان، وهي صنوف تختلف عن صنوف المتقين السابقين؛ والعجيب أن السياق يبرز هذا التنوع في هذه الجماعة الثانية-إذ هم من المؤمنين وذرياتهم-عن طريق لونين خاصين من النعيم لم يذكرا مع المتقين، وذلك قوله سبحانه: (يتنازعون فيها كأًسا لا لغو فيها ولا تأثيم) وقوله: (وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون)، مما يؤكد أنهم جماعة مكوَّنة من فرقتين.

ولذلك لم يرد ذكر نساء الجنة مع هذه الجماعة الأخيرة المكونة من الآباء والأبناء؛ لحصول الحياء، وانتفاء كمال التلذذ بهذه النعمة في حضور الآباء أو الأبناء.

ومن هنا يُفهم إيراد الغلمان في صنوف نعيم هذه الجماعة، والإطناب في تحسينهم وتزيينهم عن طريق تشبيههم باللؤلؤ المكنون، فهذا اللون من النعيم مناسب لهذه الجماعة، ولمَّا لم يتلاءم ذكر النساء معهم ذُكر التشبيه مع الغلمان تحقيقا للجمال والصفاء والنقاء والنفاسة.

- وموضع سورة النبأ يتحدث أيضا عن (المتقين)، فليسوا أصحاب منزلة خاصة، وكذلك انتفى تفصيل ألوان النعيم، كما إننا لا نلمح مقارنة صريحة بين فرقتين أو عدة أصناف كما في مواضع إيراد التشبيه، ومن ثم اعتمد السياق على الإيجاز ولم يُؤت بتشبيه لقوله: (وكواعب أترابًا)؛ لِما سبق ذكره، ثم إن السياق العام للسورة سياق تهويل من يوم الفصل وأحداث القيامة، ويغلب عليه التهديد والوعيد، ويدل على ذلك مطلعُ السورة وخاتمتُها والإطنابُ في بيان ما أعدَّ للطاغين، وإيجازُ نعيم المتقين،

والتقريرُ من البداية بأنَّ الفوز هو المطلب الأعظم للمتقين بعد ذكر تلك الأهوال (إن للمتقين مفازا) [١]؛ مما يتناسب معه عدم إيراد التشبيه.

ويلاحظ أخيرًا أنَّ من طريقة بيان القرآن المعجز في هذا المعنى عدمَ إيراد التشبيه عند ذكر (أترابا) في صفات نساء الجنة، وذلك في سُوَر ص والواقعة والنبأ؛ ولعل سبب ذلك –بالإضافة إلى ما سبق– راجعٌ إلى تنحية كل ما يمكن أن يقلل من شأن تلك الصفة القائمة على معنى الاستواء، فهي صفة ركينة في هذه السياقات؛ ولذلك كان ختم الفاصلة بها في المواضع الثلاثة، ومن ثم لم يُؤت بالتشبيه بالبيض المكنون أو اللؤلؤ أو المرجان؛ لأن التشبيه يُحدث تفاوتا يخل بالغرض والمعنى المقصودين؛ لأنَّه مع التشبيه قد يدرك ناظرٌ إلى المشبه به ما لا يدركه ناظرٌ غيره من معاني الحسن والجمال، وغير ذلك من فيوضات التشبيه وعطاءاته؛ [٢] لأن وجوه الشبه لا تنحصر باعتبارات شتى، مثل اعتبار إلمام الواحد بالعدد القليل وإلمام غيره بالكثير، واعتبار القرب أو التناهي في إدراك الوجه الواحد، فالصفة لها درجات مختلفة، يدرك منها كل واحد على حسب خياله وتأمله وطبيعة إحساسه بالمعاني وتقديره للمحسوسات؛ فينتفي الاستواء المقصود، ففي عدم إيراد التشبيه تركيز

---

(١) ولذلك قال الطاهر: "وأوثرت كلمة (مفازا) على كلمة (الجنة)–وإن كان المراد بالمفاز الجنة ونعيمها–لأن في اشتقاقه إثارة الندامة في نفوس المخاطبين بقوله: (فتأتون أفواجا) وبقوله: (فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا)". التحرير والتنوير: ٣٠/٤٤ بتصرف. فكأن ذكر نعيم المتقين وفوزهم نوع مما يعذَّب به الطاغون، وليس مقصودًا لذاته. والله أعلم.

(٢) يتأتى ذلك على المعنيين اللذين قيل بهما في معنى (أترابا)، والأول: أنهن وصفن بالأتراب بالنسبة بينهن في تساوي السن لزيادة الحسن، فلا تكون النفس أميل إلى واحدة من الأخرى، فتكون بعضهن أقل مسرة في نفس الرجل. والثاني: أن وصف (أترابا) بالنسبة بينهن وبين أزواجهن؛ لأن ذلك أحب إلى الرجال في معتاد أهل الدنيا لأنه أوفق بطرح التكلف بين الزوجين، وذلك أحلى للمعاشرة. يراجع: التحرير والتنوير: ٣٠/٤٤–٤٥.

وتشديدٌ على معنى الاستواء الذي يفيده لفظ (أترابا)؛ لأن في التشبيه إعمالًا للخيال الذي يطغى على حقيقة الاستواء.

وهذا التوجيه يؤيد ما ذهبت إليه في سبب إيراد التشبيه في المواضع الثلاثة السابقة، من كونهم أهل منازل خاصة ودرجات عالية؛ لأن الحديث هنا عن عموم المؤمنين والمتقين، فكان معنى الاستواء مناسبًا للأصل، وكان التشبيه قبلُ إعلانًا عن التفاوت في الرتبة، ولعله يشير كذلك – بعد هذا الفهم – إلى تفاوت أهل تلك المنازل الخاصة بالتفاوت في إدراك وجوه الحسن والجمال.

المبحث الثالث

ولـــدان الجنـــــــة

يأتي التكريم الإلهي لأهل الجنة المنعَّمين بما يصور غاية راحتهم بعد مشقة التكليف الدنيوي، وبما يحقق لهم الهناء والرَّوح والدعة، وخدمةُ المرء دليل كرامته وعزته وعلو شأنه، قال الشاعر يمدح قومه:

مُخَدَّمُون ثِقالٌ في مَجالسِهِم وفي الرِّحَال إذا رافقتَهُم خَـدَمُ

ومن هنا يُفهم مشهد الولدان الذين يخدمون أهل الجنة ويطوفون عليهم بألوان من الشراب، يأتمرون بأمرهم، ويصدرون عن رأيهم وما تشتهيه نفوسهم.

وقد ذُكر مشهد الولدان والغلمان في ثلاث مواضع من القرآن الكريم، هي:

١- قوله تعالى: (وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ) الطور: ٢٤.

٢- قوله تعالى: (يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ . بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ) الواقعة:١٧-١٨.

٣- قوله تعالى: (وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا) الإنسان: ١٩.

ويتضح أن التشبيه ورد في سورتي الطور والإنسان، ولم يرد في سورة الواقعة؛ حيث شُبِّه الغلمان - في سورة الطور- باللؤلؤ المكنون في الصفاء والبياض والحسن والنقاء والنفاسة، كما شُبِّه الولدان - في سورة الإنسان - باللؤلؤ المنثور في الحسن والبياض والصفاء والطراوة والبهاء والتناسب والانتشار.

أما عن سبب إيراد تشبيهٍ للغلمان في سورة الطور فقد سبق في المبحث الثاني أن ذلك اللون من النعيم والتكريم مناسب لهذا السياق الذي يتحدث عن الذرية التي اتبعت آباءها بإيمان وإلحاقهم بهم في جنات النعيم؛ إدخالًا للسرور عليهم، بما في صحبة الأبناء من لذة ومتعة وسعادة، فكل منهم يهنأ بالآخر، ويتذاكرون طاعتهم لله

وحده، ودعاءَهم له سبحانه أن يمنَّ عليهم ويرحَمهم، فوقاهم الله عذابَ السموم، وأسكنهم جناتِ الخلود، وأكرمهم بصحبة الأحباب، إنه هو البَرُّ الودود.

فالغلمان مملوكون لهم، ويطوفون عليهم بما يشاءون ويشتهون، فضلا عما فُصِّل في مواضع أخرى من طوافهم بكئوس الشراب والخمر، وطواف الغلمان هنا على فريق الآباء والذرية التي اتبعتهم بإيمان، ومن ثم فإن تشبيه الغلمان باللؤلؤ المكنون في الصفاء والبياض والحسن والنفاسة... يتمتع به كل من الآباء والأبناء في مجلسهم الجامع الذي يتسامرون فيه ويتساءلون ويأنس بعضهم ببعض، فيتمتعون بهذا البهاء والجمال الباهر الذي تشع به أنوار هذه الغلمان، فيكون نعيمًا فوق نعيم الخدمة والطواف والتكريم والشعور بالعزة والكرامة وكونهم منعّمين مخدومين بعد عناء الدنيا ومشقة التكليف، جزاء بما كانوا يعملون.

ولمّا كانت الخدمة هنا لكل من الآباء والذرية عُبِّر بالغلمان دون الولدان – كما في سورتي الواقعة والإنسان – ، وهذا ما اهتدى إليه الإمام الغرناطي عن طريق النظر والتفريق بين دلالة اللفظين وأنهما ليسا بمترادفين؛ " فالغلام هو الطارُّ الشارب وقد يستصحب هذا الاسم إلى أن يشيب، أما الوليد فاسم للمولود حين يولد، وفيه بنية المبالغة، مما يفيد استحكامَ الصِّغَر، وعليه فإنَّ وجه ورود (الغلمان) في سورة الطور – والله أعلم – مناسبة اللفظ باتساع مواقعه في أحد القولين، وهي استصحاب اسم الغلومية إلى المشيب، أو لاحتياج التوسع فيما يطوفون به ويستخدمون فيه بحسب أسنانهم لمن تقدم من صنفي المخدومين وهم الآباء والأبناء.

أما آية الواقعة فلم يقع فيها ذكر الاتباع فناسب ذلك ذكر الولدان الذين لا تحتمل أسنانهم خدمة الغلمان، فناسب الاقتصارُ الاقتصارَ والتوسعُ التوسعَ.

وجوابٌ ثانٍ وهو أنه لما ذكرت الذرية في سورة الطور بما كان يوهم ذكرهم من حيث دخولهم الجنة بغير عمل أنهم فيها خُدَّام لِمَن اتبعوه بَيَّن قولُه تعالى: (وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ) أنَّ الكل من تابع ومتبوع مخدومون، ولما لم يقع في سورة الواقعة

وسورة الإنسان ذِكرُ الأتباع مِن الذرية لم يَرد فيهما إلا اسم الولدان، وهم في الخدمة بمقتضى أسنانهم دون الغلمان". (١)

فالجماعة المخدومة هنا كثيرة وكبيرة ومتنوعة باجتماع الآباء والأبناء والذرية، وقد يمتد ذلك إلى أحقاب عديدة، حيث يتقابل الأولون من الآباء والأجداد مع الآخرين من الذرية والأبناء، فيتضاعف السرور، ويتعاظم الحبور، وهذا الجمع الغفير يناسبه في الخدمة الغلمان الذين يقوون على خدمة هذا العدد العظيم، والقوة تتفق مع سنهم، ثم أتي بالتشبيه كي يجمع بين القوة والفتوة والحسن والجمال.

ولم يرد ذكر نساء الجنة مع هذه الجماعة المكونة من الآباء والأبناء والذرية؛ لحصول الحياء، وانتفاء كمال التلذذ بهذه النعمة في حضور الآباء أو الأبناء، وقد يكون في الذرية من لم يبلغ فلا تحصل له لذة بذلك، (٢) ومن هنا يُفهم إيراد الغلمان في صنوف نعيم هذه الجماعة، والإطناب في تحسينهم وتزيينهم عن طريق تشبيههم باللؤلؤ المكنون، فهذا اللون من النعيم مناسب لهذه الجماعة، ولمَّا لم يتلاءم ذكر النساء معهم ذُكر التشبيه مع الغلمان تحقيقًا للجمال والصفاء والنقاء والنفاسة.

أما عدم تشبيه الولدان في سورة الواقعة فيعود سرُّه -والله أعلم- إلى ذكر الحور العين بعد ذلك، والتشبيه التزييني أشد طلبا في حقهن وأكثر رغبة (وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون)؛ لِما يحصل بهن من كمال اللذة ونهاية المتعة، وإبرازًا للتفاوت فيخلص لهن مشهد الجمال.

---

(١) ملاك التأويل: ٢/٤٥٣-٤٥٤ بتصرف.

(٢) قال الراغب: "الغلام الطارُّ الشارب...واغتلم الغلام إذا بلغ حد الغلومة، ولما كان مَن بلغ هذا الحدَّ كثيرًا ما يغلب عليه الشبق قيل للشَّبِق: غُلْمَة" المفردات: ٣٦٦-٣٦٧. وبذلك يمكن فهم وجه آخر في عدم ذكر نساء الجنة في هذا السياق، وهو أن ذلك يرجع إلى أن الغلام يكثر إطلاقه على من يغلب عليه الشبق، فلم تذكر الحور إثباتًا لغيرة المنعَّمين، وتقريرًا لحياء الحور. والله أعلم.

ووجه ثان وهو أن القصد هنا إلى ذكر ما يطوف به الولدان من الأكواب والأباريق والكئوس التي يسقون بها من معين الجنة، ولا يحسن الفصل بالتشبيه كي لا يطول الفصل بين الجار والمجرور ومتعلقه (يطوف)، ومما يقوي وجاهة هذا الوجه أنه في سورة الإنسان قُدِّم ذِكرُ ما يُطاف به عليهم (وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَاْ...) الإنسان: ١٥-١٨، ثم ذُكر الطوافون من الولدان وشُبِّهوا باللؤلؤ المنثور في قصد مستقل، فتعدد النعيم وحصل التفنن والكثرة، وأتي بتشبيه الولدان باللؤلؤ المنثور بعيدًا عن ذكر خدمتهم وسعيهم عليهم بالشراب، كي لا يجتمع امتهان الخدمة – فيما يظن – مع ما ينثره التشبيه من لذات التمتع بالحسن والجمال والشعور بالنفاسة.

ولا ينتفي الحسن والجمال عن الولدان هنا في سورة الواقعة بانتفاء التشبيه؛ إذ قد يكون مقرَّرًا وثابتًا ومعلومًا بتشبيه الغلمان باللؤلؤ المكنون سابقًا في سورة الطور – حسب ترتيب المصحف – [1]، لكن لمَّا اجتمع ذكرهم مع الحور العين كانت الحور بالتشبيه أولى وأحق لِما سبق.

ولمَّا لم تُذكَر الحور العين في سورة الإنسان ألحق التشبيه بالولدان (إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا)؛ لأن في السياق تفصيلًا يقتضي الإطناب في سرد ألوان النعيم والتزيين والتحسين، فاستلزم التشبيه.

ويلاحظ أن التشبيه هنا يتناسب مع انتشارهم وسرعتهم في الخدمة والسعي والطواف، حيث كثر في هذا السياق الحديث عن شرب الأبرار من أنواع مختلفة، إذ ورد في سبع آيات، وقد ابتُدئ في عرض ثوابهم بالشراب (إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ

---

(١) فمراعاة ترتيب المصحف الشريف تحقق هذه الغاية، أما مراعاة نزول الواقعة قبل الطور–وهما مكيتان–فيفيد شدة عناية النظم الحكيم بإبراز جمال الحور العين وبلوغه مبلغا لا يتصور معه حسنٌ آخر، ومن ثم لم يُؤت بتشبيه للولدان. والله أعلم.

مِزَاجُهَا كَافُورًا) الإنسان:٥، وخُتم هذا الثواب بالشراب أيضا في قوله سبحانه: (وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا) الإنسان:٢١، وتخلل ذلك بيانُ ألوان أخرى من الشراب أو بما له صلة به، ولعل سر ذلك يرجع إلى خصوصية عمل هؤلاء من إطعام الطعام على حبه وابتغاء وجه الله، وعدم تطلعهم إلى جزاء بشري بالعمل ولا شكر باللسان؛ فكان هذا الجزاء والعطاء الوارد في هذا السياق الطويل خاصًّا بهم (إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا) الإنسان:٢٢، فأفادت (لكم) قصر ذلك عليهم، وذلك جزاء الله – تعالى– وشكره، بعد ما زهدوا فيما عند الناس، وما عند الله خير وأبقى.

فاللؤلؤ هنا منثور، والتشبيه مقيد بهذه الصفة المناسبة لحال الولدان وابتثاثهم بين حِلق أهل الأبرار، قال جار الله الزمخشري: " شُبهوا في حسنهم وصفاء ألوانهم وانبثاثهم في مجالسهم ومنازلهم باللؤلؤ المنثور ...، وقيل: شُبهوا باللؤلؤ الرطب إذا نثر من صدفه، لأنه أحسن وأكثر ماء". (١) وقال القرطبي: " وقيل: إنما شبههم بالمنثور، لأنهم سراع في الخدمة، بخلاف الحور العين إذ شبههن باللؤلؤ المكنون المخزون، لأنهن لا يمتهن بالخدمة". (٢)

---

(١) الكشاف: ٦/٢٨١–٢٨٢. وينظر: خصائص التعبير القرآني، د. عبد العظيم المطعني: ٢/٢٤٤. وإن كانت مقارنة الدكتور المطعني– رحمه الله – بين التعبير بالمنثور في سورة الإنسان، وبالمكنون في سورة الواقعة؛ لم تراع وجود وصف اللؤلؤ بالمكنون في جانب (الغلمان) في سورة الطور.

(٢) الجامع: ١٠/٦٩٣٥. ويراجع: البغوي: ٥/١٩٣، الرازي: ٣٠/٧٥٣، حاشية الطيبي على الكشاف: ٦/٢٠٣.

المبحث الرابع

شجـرة الزقـوم

شجرة الزقوم من ألوان العذاب التي سيَلقاها أهلُ النار كما أخبرنا القرآن الكريم، وقد ورد ذِكرُها صراحة في ثلاثة مواضع من الكتاب الحكيم، قال الله –تعالى–:

*(أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ . إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ . إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ . طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ . فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ) الصافات:٦٢-٦٦.

*(إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ . طَعَامُ الْأَثِيمِ . كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ . كَغَلْيِ الْحَمِيمِ) الدخان:٤٣-٤٦.

*(ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ . لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ . فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ . فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ . فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ) الواقعة:٥١-٥٥.

وهي الشجرة الملعونة الوارد ذكرها في قوله تعالى: (وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ) الإسراء: ٦٠ [1]، وكان التشبيه برءوس الشياطين سببَ اجتهادٍ طويلٍ من العلماء على مرّ الدهور والأزمان، حتى إنه كان – فيما روي – سببَ وضع أبي عبيدة كتابَ (مجاز القرآن).

---

(١) يراجع: جامع البيان:١٧/٤٨٤-٤٨٦، معاني القرآن للفراء:٢/١٢٦، غريب القرآن لابن قتيبة: ٢٥٨، المحرر الوجيز: ٣/٤٦٨، الجامع لأحكام القرآن: ١٠/٢٨٢، لباب التأويل: ٣/١٣٥، تفسير ابن كثير: ٥/١٨٣، معترك الأقران: ٣/٢٣٢، فتح القدير للشوكاني: ٣/٢٨٤، التحرير والتنوير: ١٥/١٤٧، أضواء البيان للشنقيطي: ١/١٤، ٣/٣، ١٦٥.

ومجمل حديث المفسرين عن المراد بالشجرة يدل على أنها لون خاص من العذاب، وليس لها نظير في الوجود، فقالوا: [١]

١- هي شجرة غير معروفة لقريش؛ ولذلك فصلت لهم أوصافها في سورتي الدخان والصافات، بعد ذكرها إجمالًا وتوعدهم بها في سورة الواقعة؛ ودليل كونها غير معروفة لهم ما حصل من استهزائهم بها وقولهم: إنما الزقوم: التمر بالزبد، ونحن نتزقمه، فهذا ما يوعدكم به محمد!

٢- هي شجرة من أخبث الشجر يكون بتهامة، كريه الرائحة صغير الورق، مسموم ذو لبن إذا أصاب جلد الإنسان تورم ومات منه في الغالب. والتزقم: البلع على شدة وجهد.

٣- هي كل نبات قاتل.

فشجرة الزقوم شجرة غير معلومة، وهي من ألوان العذاب الغيبية التي توعد الله بها الظالمين والكافرين والمجرمين؛ لأن القرآن الكريم كان يؤسس في تلك الفترة المكية لبناء العقيدة بناء ثابتًا راسخًا في نفوس وقلوب من كتب له الهداية والرشاد؛ لإعداد رجال يتحملون أعباء الدعوة وتكاليفها الشاقة بعد ذلك. إنها الحكمة الإلهية أن يُجعل هذا الأمر الغيبي سببًا في زيادة إيمان المؤمنين وغرس وترسيخ اليقين في قلوبهم؛ ومن ثم ندرك سر غيبية هذه الشجرة من اندراجها في هذا الإطار العام من

---

(١) النكت في القرآن الكريم لعلي المجاشعي: ٤١٦-٤١٧، المحرر الوجيز: ٤/٤٧٥، البيضاوي: ٨٠/٨، البغوي: ٣٢/٤، القرطبي: ٨٥/١٥، غرائب القرآن للنيسابوري: ٥٦٢/٥، فتح القدير: ٤٥٦/٤، روح المعاني: ٩٢/١٢، التحرير والتنوير: ١٢٢/٢٣-١٢٣. وينظر: المنهاج في شعب الإيمان: ٤٧٣/١-٤٧٤. ويراجع: تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة: ٤٨-٥٠، دعاوى الطاعنين في القرآن الكريم في القرن الرابع عشر الهجري والرد عليها: ٨٠/١-٨٢.

الحديث عن الوحدانية والنبوة والبعث واليوم الآخر والحساب والجنة والنار والعذاب والنعيم والعرش والملائكة والجن وخزنة جهنم والنفخ في الصور وانشقاق السماء والإسراء والمعراج...وغير ذلك كثير مما فصله القرآن المكي، فكانت شجرة الزقوم – كما سيأتي تفصيله – فتنة يمتحن الله بها العباد؛ فمن صدق بها – كما وصفها القرآن الكريم– فهو مؤمن حقًّا، ومن كذب واستعان بأقيسة العقل البشري المحدود وأخذ يشكك غيره ويصد عن دين الله فهو ظالم لنفسه ومجرم في حق غيره وهو من الكافرين.

وقد وردت شجرة الزقوم مبهمة كذلك في السنة النبوية، أو لنقل وردت بما ينبيء عن كونها شجرًا غير ما تعارف عليه الناس في الدنيا؛ فعن ابن عباس – رضي الله عنهما – أن النبي–صلى الله عليه وسلم–قال: "لو أن قطرة من الزقوم قطرت في دار الدنيا لأفسدت على أهل الدنيا معايشهم فكيف بمن يكون طعامه؟ " [1] ويأتي الحديث الشريف متسقًا مع حديث القرآن الكريم عن صفات تلك الشجرة بما يخرجها عن المعهود من شجر الدنيا؛ فأين هذا الشجر الذي يقطر قطرة تفسد على الناس جميعًا معايشهم؟! إلا تلك الشجرة الملعونة التي هي (كَٱلۡمُهۡلِ يَغۡلِي فِي ٱلۡبُطُونِ . كَغَلۡيِ ٱلۡحَمِيمِ) الدخان: ٤٥–٤٦.

هذا وقد قرر الإمام ابن القيم أن من تمام ظهور آيات الله تعالى وكمال اقتداره وحكمته أن يخلق مثل جبريل – عليه السلام – الذي هو أطيب الأرواح العلوية وأزكاها وهو السفير في كل خير، ويخلق مقابله مثل روح اللعين إبليس الذي هو أخبث الأرواح وشرها وهو الداعي إلى كل شر، كما أن من تمام قدرته وحكمته أن خلق الضياء والظلام والجنة والنار وسدرة المنتهى وشجرة الزقوم وليلة القدر وليلة الوباء والملائكة والشياطين والمؤمنين والكفار والأبرار والفجار...، وأن الله يتعبد خلقه بذلك ويحقق فيهم

---

(١) سنن الترمذي: ٤/٧٠٦، وقال: حسن صحيح.

أنواعًا من العبوديات؛ فلولا خلق الشيطان مثلًا لما حصلت عبودية الصبر على المعصية. (١) وكذلك الأمر مع شجرة الزقوم يتحصل بها ما ينفع الدعوة ويمحص المؤمنين وينفي عن صفوفهم المنافقين كما سيأتي بيانه.

ولمَّا لم يكن ثمة دليل صريح على وجود ما يطلق عليه (شجرة الزقوم) فيما تخرجه وتنبته أرض الدنيا؛ ألفينا كثيرًا من العلماء يتورعون عن تفسيرها بشجرة معروفة خبيثة الصفات، ثم إنهم وإن نقلوا ذلك ينقلونه بصيغة التضعيف ويؤخرونه في التأويل ويقدمون ما يدل على كونها غيبًا. فالإمام الطبري لم يذكر شيئا في ماهيتها واكتفى بأن الله ذكر صفاتها، في الرد على كون المشبه والمشبه به مجهولين في آيات سورة الصافات، ونكتفي هنا بقوله: "ومعلوم أن الذين خوطبوا بهذه الآية من المشركين، لم يكونوا عارفين شجرةَ الزقوم، ولا برءوس الشياطين، ولا كانوا رأوهما، ولا واحدًا منهما؟ قيل له: أما شجرة الزقوم فقد وصفها الله – تعالى ذكره–لهم وبينها حتى عرفوها ما هي وما صفتها، فلم يتركهم في عَماء منها". (٢)

ومن الظاهر أن الإمام الطبري يقرر أن شجرة الزقوم شجرة مجهولة، شأنها شأن رءوس الشياطين التي شبهت بها، وأن المشركين كانوا على جهل بهما.

وكذلك الإمام البغوي؛ فقد اكتفى بقوله: "والزقوم: ثمرة شجرة خبيثة مرة كريهة الطعم، يكره أهل النار على تناولها، فهم يتزقمونه على أشد كراهية، ومنه قولهم: تزقم الطعام إذا تناوله على كره ومشقة." (٣) فربط تأويله بتصوره في أهل النار وأن ذلك في الآخرة.

---

(١) ينظر: شفاء العليل: ٢٢٣–٢٢٥. ويراجع: الرد على الجهمية والزنادقة: ٨٣–٨٤.

(٢) جامع البيان: ٢١/٥٣–٥٤.

(٣) تفسير البغوي: ٤/٣٢.

وقال الإمام الراغب – في تعريف الزقوم – :"عبارة عن أطعمة كريهة في النار، ومنه استعير: زَقَمَ فلان وتَزَقَّمَ: إذا ابتلع شيئا كريهًا." (١) وقال الخازن: "(أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ) التي هي نزل أهل النار..." (٢) ولم يذكر الإمام الزمخشري المراد بشجرة الزقوم واكتفى بقوله –في سورة الصافات–:"وحاصل شجرة الزقوم: الألم والغم".(٣) فعرفها بما يلحق آكلها الملعون من ألم وعذاب.

ولم يخرج الرازي عن مفهوم النص القرآني في تأويلها فقال: "وظاهر لفظ القرآن يدل على أنها شجرة كريهة الطعم منتنة الرائحة شديدة الخشونة، موصوفة بصفات كل من تناولها عظم من تناولها، ثم إنه تعالى يكره أهل النار على تناول بعض أجزائها." (٤) فلا يوجد قياس على شجر من شجر الدنيا في الشكل أو الطعم أو اللون أو الريح.

---

(١) المفردات: ٢١٨. وينظر: سورة الواقعة ومنهجها في العقائد:٨٤–٨٥.

(٢) تفسير الخازن: ١٩/٤. وكذلك عرفها الكفوي في الكليات: ٤٩٢.

(٣) الكشاف: ٢١٣/٥. وينظر: الفائق في غريب الحديث: ١١٧/٢. وقال ابن الأثير في شرح حديث: (لو أن قطرة من الزقوم...): "الزقوم: ما وصف الله في كتابه العزيز...وقيل: أكل الزبد والتمر بلغة إفريقية". النهاية في غريب الحديث والأثر: ٣٠٦/٢–٣٠٧.

(٤) مفاتيح الغيب: ٣٣٦/٢٦. وحقق في سورة الواقعة الاشتقاق اللغوي الذي تدور حوله مادة (زقم)، قال: "والتحقيق اللغوي فيه أن الزقوم لغة عربية دلنا تركيبه على قبحه، وذلك لأن زق لم يجتمع إلا في مهمل أو في مكروه منه... وأما ما يقال بأن العرب تقول: زقمتني بمعنى أطعمتني الزبد والعسل واللبن، فذلك للمجانة كقولهم: أرشقني بثوب حسن، وأرجمني بكيس من ذهب". ٤١٤/٢٩. وهذا رد على كثير من أصحاب المعاجم الذين فسروا الزقوم بما فسره به أبو جهل على سبيل السخرية، ورد الرازي معتمد على المشاكلة اللفظية. ويراجع: المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم، د/ محمد حسن جبل: ٩٠٦/٢.

واقتصر الحافظ ابن كثير في بيانها على قوله: "(أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ) أَيِ الَّتِي في جهنم". (١)

وقال العلامة المناوي: "الزقوم: عبارة عن أطعمة كثيرة في النار، ومنه استعير زقم فلان وتزقم ابتلع شيئًا كريهًا." (٢) واكتفى الشيخ الطاهر في تفسيرها في سورة الواقعة بقوله: "وشجر الزقوم: من شجر العذاب". (٣) بعد أن ذكر رأيين في سورة الصافات: هي شجرة في جهنم، أو شجر معروف مذموم.

ونختم هذا التحرير باستغاثة ابن العربي بالله – تعالى – ممن يبطلون الحكمة الإلهية من حيث لا يعلمون، يقول ابن العربي–في سورة الدخان–:" فيها ثلاث مسائل: المسألة الأولى الزقوم: كل طعام مكروه، يقال: تزقم الرجل إذا تناول ما يكره. ويحكى عن بعضهم أن الزقوم هو التمر والزبد بلسان البربر، ويا لله ولهذا القائل وأمثاله الذين يتكلمون في الكتاب بالباطل وهم لا يعلمون." (٤) فرأى ابن العربي أن تفسير الزقوم بطعام التمر والزبد – بلسان البربر (إفريقية) – تقوُّلٌ على كتاب الله بالباطل. وقد وقعت بعض المعاجم في هذا الخطأ حين فسروا (الزقوم) بأنه اسم طعام لهم فيه تمر وزبد، مستدلين على ذلك بما رواه ابن عباس – رضي الله عنهما – أنه لما نزل قوله تعالى: (إِنّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعَامُ الأَثيمِ) قال أبو جهل: التمر بالزبد نتزقمه. (٥)

---

(١) تفسير ابن كثير : ٧/١٦-١٧.

(٢) التوقيف على مهمات التعاريف: ٣٨٧.

(٣) التحرير والتنوير: ٢٧/٣١٠. وينظر منه: ٢٣/١٢٢. وينظر: فتح القدير: ٤/٤٥٦.

(٤) أحكام القرآن: ٤/١١٩.

(٥) ينظر: الصحاح للجوهري: (زقم) ٥/١٩٤٢-١٩٤٣. ولذلك كان الخليل بن أحمد حصيفًا حين قال: "الزقم: أكل الزقوم. ويقال: الزقوم بلغة إفريقية الزبد بالتمر ...ثم ذكر قول أبي جهل". العين:٥/٩٤. وكذلك اعتمد ابن سيده على معنى ازدقم وهو ابتلع، ثم قال: "والزقوم: طعام أهل النار. وبلغنا أنه لما نزلت آية الزقوم لم تعرفه قريش فقال أبو جهل..." المحكم: ٦/٢٦٣-٢٦٤

←←←

ولا يصح الاستشهاد بما قاله أبو جهل – وإن صحت الرواية – لأنه قال ذلك على سبيل الاستهزاء والسخرية – أو (المجانة) على حد تعبير الإمام الرازي –، معتمدًا على ظاهر لفظ التزقم أي البلع واللقم والأكل، وقد أورد الإمام الطبري الرواية – وغيره كثيرون – إلا أنهم تورعوا عن تفسير الزقوم بها؛ ولذلك جزم الإمام الطبري بقوله: "ومعلوم أن الذين خوطبوا بهذه الآية من المشركين، لم يكونوا عارفين شَجَرة الزقوم".

وكان أبو جهل من العرب العرباء؛ وقد كان على علم بأن لا وجود لتلك الشجرة في الدنيا؛ ولذلك كان صادقًا مع نفسه وجهله، فركن إلى التمويه والاستهزاء والتلاعب بالألفاظ؛ فإن شجرة الزقوم وإن اشتقت من لفظ معلوم لهم (زقم) فإنهم يدركون أن المعنى مختلف والدلالة مغايرة؛ فكيف تفسر بعض المعاجم (شجرة الزقوم) بما تأولها به أبو جهل ساخرًا؟

وقد حضر التشبيه لطلع شجرة الزقوم وطعامها في سورتي الصافات والدخان، فشُبَّه طلعها برءوس الشياطين في الصافات، وشُبَّه طعامها بالمهل الذي يغلي في البطون، ثم شُبِّه هذا الغليان بغلي الحميم. وغاب هذا التشبيه في سورة الواقعة، على

→→→

(زقم). ولم ينقل ابن منظور تعريف الزقوم بأنه اسم طعام لهم فيه تمر وزبد إلا عن الجوهري– وهذه سقطة كبيرة لصاحب الصحاح عفا الله عنه–. ينظر: لسان العرب: (زقم). وكذلك نقله الزبيدي عن الجوهري، قال:" والزَّقُّوم كَتَنُّور: الزُّبْدُ بالتَّمر، فِي لغة إفريقية. وفي الصّحاح: اسم طعامٍ لهم فيه زبد وتمر. والزَّقْم: أَكله". تاج العروس: (زقم) ولذلك كان د. محمد أبو جبل في غاية الحرص وهو يؤصل لهذه الكلمة في معجمه؛ فقال في المعنى المحوري: " بَلْع (إلى الباطن) بغلظ وقوة كاللُقم الغليظة المبتلَعة بقوة، وكالإفراط في شرب اللبن. ومنه شجرة الزقوم لأنهم – والله أعلم– يُكْرَهون على تزقمها رَغْما. ونعوذ بالله منها". المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم:٢/٩٠٦.

الرغم من أنَّ الأكلَ من تلك الشجرة منصوصٌ عليه في المواضع الثلاثة؛ فما الداعي إلى التشبيه في الصافات والدخان؟ وما سر ترك التشبيه في الواقعة؟

أولا: التشبيه في سورة الصافات:

(أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾).

هذا هو السياق القريب للتشبيه في سورة الصافات، وهو سياق يأتي مرتبطًا بما قبله من حديث عما أعد لعباد الله المخلصين من الرزق المعلوم الذي فصلته الآيات قبل ذلك (٤١-٦١)؛ فالمعنى والسياق هنا معادلان للمعنى والسياق السابقين، وهو ما يتجلى في (أم) المتصلة الواقعة بعد همزة الاستفهام في صدر هذا السياق؛ ومن ثم فإن إدراك بلاغة التشبيه في هذا السياق لا يقتصر على النظر في سياقه الجزئي الواقع في بؤرته، إنما يمتد إلى سياق النعيم الذي قبله، وإلى ما قبل ذلك من مطلع السورة، ثم يمتد النظر إلى ما بعد السياق مما ورد في السورة الكريمة من معان وصور ومفردات تتناسب مع التوجيه الذي نراه قريبًا لسر استدعاء الصورة التشبيهية هنا على هذا النحو الخاص، وهذا التتبعُ للسوابق واللواحق لن يكون تتبعًا استقصائيًا لكل ما يقوي ما نراه، بل نكتفي بإيراد بعض ما يحقق الإقناع.

إن الناظر المدقق في السياق، المستحضرَ لكل ما أثير حول تشبيه شجرة الزقوم (الغيبية المجهولة والمختلف في تفسيرها) برءوس الشياطين (الغيبية المجهولة كذلك) يقع في خلده أن غرض التشبيه هو إحداث هذه الإثارة (الفتنة بتعبير القرآن)، إن الأمر يتجاوز حدود البيان والإيضاح، كما يرى البلاغيون في المهمة الأولى للتشبيه.

فعلى الرغم مما حاول به بعض المفسرين والبلاغيين – منذ عصر أبي عبيدة والجاحظ – من رد تشبيه شجرة الزقوم برءوس الشياطين إلى غرض البيان؛ بما

حرروه مما هو مشهور من أن التشبيه تخييلي بما اشتهر في النفوس من كراهة رءوس الشياطين وقبحها [1]، أو كما قرر الشيخ الطاهر من أن التشبيه " لتقريب حال المشبه؛ فلا يمتنع كون المشبه به غير معروف ولا كون المشبه كذلك، ونظيره قول امرئ القيس: ومسنونة زرق كأنياب أغوال".[2] على الرغم من تلك المحاولات إلا أن هذا التشبيه القرآني ما زال مثار اختبار وابتلاء ليميز الله الخبيث من الطيب، وقد توارث السادة المفسرون وغيرهم هذا التوجيه وهذا القياس، وهو قياس فيه نظر؛ لأن الغيب يحيط بطرفي التشبيه في الآية القرآنية الحكيمة، بخلاف المشبه في بيت امرئ القيس (مسنونة زرق)؛ فهو معلوم الذات والصفة (هي رمح حادة صافية)، وهذه الصفة المنصوص عليها في جانب المشبه هي دليل الوجه والصفة المشتركة بين الطرفين والمقصودة من التشبيه، وكذلك الأمر في قوله: (أنياب) في جانب المشبه

---

(١) يراجع: الحيوان: ٢٧٩/٤-٢٨٠، الطبري: ٥٣/٢١، الكشاف: ٢١٣/٥، البيضاوي: ٨١/٨، الرازي: ٣٣٧/٢٦، البغوي: ٣٣/٤، النيسابوري: ٥٦٢/٥، القرطبي: ٥٥٣٠/٨، ابن كثير: ١٧/٧، البحر المحيط: ١٠٧/٩، فتح القدير: ٤٥٦/٤، سر الفصاحة: ٣٠٠. ودارت الأقوال في المراد برءوس الشياطين حول خمسة أمور، هي: ١-رءوس شياطين الجن. ٢-ثمر الأستن (بفتح الهمزة والتاء وسكون السين) وهو شجر في بادية اليمن. ٣-ضرب من الحيات. ٤-جنس من النبات في غاية الفحاشة. ٥-حجارة سود تكون حول مكة. وصرح كثير من المفسرين بأن الأول هو الحق، كالرازي وابن كثير. يراجع: ما سبق وروح المعاني:٩٣/١٢، التحرير والتنوير:١٢٤/٢٣.

(٢) التحرير والتنوير: ١٢٤/٢٣. وينظر-مثلا-: معاني القرآن للنحاس: ٣٤/٦-٣٥، الكامل للمبرد: ٧٢/٣، العمدة لابن رشيق: ٢٨٨/١، النكت في القرآن الكريم للمجاشعي: ٤١٦-٤١٧، ربيع الأبرار للزمخشري: ٣٢٢/١، تفسير القرطبي: ٥٥٣٠/٥، الرازي: ٣٣٧/٢٦، الإيضاح للقزويني: ٢٢/٤، البحر المحيط: ١٠٧/٩.

به؛ فإن الأنياب معروفة ذاتًا وصفة في كل خلق وأنها حادة دائمًا؛ ومن هنا فإن معرفة وجه الشبه لا تتطلب فكرًا؛ لأن الوجه يكاد يكون مذكورًا.

ومن ثم أرى أنه لا يستوي قياس التشبيه برءوس الشياطين بتشبيه امرئ القيس؛ فهو قياس بعيد جدًّا من ناحية الشكل؛ لأن ثمة مفردات في جانب الطرفين قربت الغرض والصفة الجامعة المقصودة؛ ولذلك انتفى عن تشبيه امرئ القيس الناحية المعنوية (الأثر النفسي) الذي قصد إليه التشبيه القرآني المعجز، إنه ذلك الأثر الذي يبقى ما دامت دعوة الإسلام باقية متمثلة في هذا الخطاب القرآني الذي يجمع بين الوعد والوعيد؛ فإنه على الرغم من تلك الجهود المحمودة والأقيسة المنطقية بقيت طريقة هذا التشبيه مثار أسئلة واعتراضات، وهذا هو مقصد التشبيه برءوس الشياطين؛ إنها الفتنة التي كانت في بؤرة وصدر السياق (إنا جعلناها فتنة للظالمين)، غرض التشبيه هنا الفتنة، أو بمعنى أدق ترشيح للفتنة المقصودة صراحة في السياق.

ربما يبدو الغرض من التشبيه بعيدًا عن جميع أغراض التشبيه التي سجلها البلاغيون، وهذا مقصود ولا بد أن يكون مقصودًا في دراسة الإعجاز وبيان أسراره وخصائصه، إن البلاغيين والمفسرين حصروا أنفسهم في الطرفين لاستنباط وجه الشبه (قبح المنظر)، دون أن يعتبروا السياق الذي نص في بدايته على لفظ (الفتنة)، وهو لفظ قريب ويكاد يكون محور المعنى، وما ورد من روايات عن فتنة أبي جهل واستهزائه وسخريته يسوقنا نحو اعتبار (الفتنة) –أو ترشيح وتقوية معنى الافتتان–الغرضَ الأول للتشبيه هنا، دون تقرير القبح.

إن القرآن جذب الناس وأعجزهم وزلزل قلوبهم وأثار عقولهم بمعانيه وأحكامه وشرائعه ووعده ووعيده وقصصه وأخباره مع–أو قبل– أسلوبه وبلاغته؛ مما يتطلب منا جهدًا جديدًا في مراجعة النظرات الجزئية للبلاغة القرآنية في ضوء هذه القناعة؛ فننتج ما يمكن أن نطلق عليه اسم (البلاغة الموضوعية للقرآن الكريم)، وذلك مشروع –لعمري– جِدُّ ضروري في هذا العصر.

وبعد تسجيل دور التشبيه وغرضه والنص على أنه لترشيح معنى الافتتان، ننتقل إلى تسجيل بعض السمات والخصائص اللفظية والمعنوية والأسلوبية التي تدعم وتساند الدور والغرض.

١- إن مجرد الاكتفاء بقبح الصورة والتنفير من المشبه لا يصح أن يكون دافعًا للناس إلى الإسلام والتصديق بالنبي -صلى الله عليه وسلم- وزاجرًا لهم عن الكفر والظلم والإجرام؛ لأن القوم ليسوا أطفالا صغارًا ترعبهم الصور المخيفة القبيحة؛ فهم قوم لُدٌّ خصمون مجرمون مبطلون ظالمون جاحدون ...كما وصفهم القرآن الكريم، إن التشبيه هنا يقصد إلى إحداث هزة في عقولهم ورجفة في قلوبهم وقارعة تحررهم من ظلمة فكرة تقليد الآباء التي ستوردهم تلك المهالك وتذيقهم هذا العذاب إن لم يقطعوا هذا الرباط الذي يجذبهم إلى الهاوية، ويعتصموا بحبل الله المتين الذي فيه السعادة والنجاة؛ والجملة التعليلية لاستحقاق هذا العذاب إن لم يؤمنوا (إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ) والنص على الضلال أي التخبط وعدم الاهتداء إلى الهدى والرشاد؛ وأن ذلك التقليد الأعمى هو سبب أحقيتهم لهذا العذاب الأليم في الآخرة، وقبل ذلك في الدنيا من حياة ضالة وعقول حائرة؛ كل ذلك وغيره يؤكد أن غرض التشبيه هو ترشيح معنى الافتتان الوارد في قوله تعالى: (إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ)؛ فالفتنة أول ما وصف به هذا العذاب المفصل، وكل ما يأتي مرتد إلى هذا الوصف ومتعلق به، والفتنة هنا بمعنى الاختبار، قال الراغب: " وتارة في الاختبار نحو: (وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً) طه:٤٠، وجعلت الفتنة كالبلاء في أنهما يستعملان فيما يدفع إليه الإنسان من شدّة ورخاء، وهما في الشّدّة أظهر معنى وأكثر استعمالا، وقد قال فيهما: (وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً)الأنبياء:٣٥... والْفِتْنَةُ من الأفعال التي تكون من الله تعالى، ومن العبد كالبليّة والمصيبة، والقتل والعذاب وغير ذلك من الأفعال الكريهة، ومتى كان من الله يكون على وجه الحكمة، ومتى كان من الإنسان بغير أمر الله يكون بضدّ

ذلك، ولهذا يذّمّ الله الإنسان بأنواع الفتنة في كلّ مكان نحو قوله: (وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ) البقرة: ١٩١."[١]

وحكمة الفتنة هنا بشجرة الزقوم والتشبيه برءوس الشياطين لا يمكن أن تقتصر على التخويف وبث الرعب في قلوب قوم تلك صفاتهم، وما تلك الحكمة – والله تعالى أعلم – إلا الحث على التفكر والتعقل وترك تقليد الآباء، والفتنة هنا تتعاظم بهذا التشبيه، بعد أن أسس لها قبل في قوله سبحانه: (إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ) الصافات:. ٦٤

٢- يتناسب مع ما سبق قول الله-تعالى-: (وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ) الإسراء: ٦٠؛ فقد قصرت حكمة آيتي الإسراء وشجرة الزقوم على كونهما فتنة. والعجيب والمعجز أن سورة الإسراء نزلت قبل الهجرة بسنة أو بعد ذلك لأنها نزلت بعد حادثة الإسراء؛ لأن حادثة الإسراء حدثت قبل الهجرة بسنة على أرجح الأقوال وأشهرها [٢]؛ فقرنت الشجرة الملعونة (شجرة الزقوم) بمعجزة الإسراء، وقصرت الحكمة على كونهما فتنة للناس، وكان ذلك في أواخر العهد المكي، ولم يزل الجدال والتكذيب باقيًا في قضايا عقدية أساسية منها البعث: (وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا) الإسراء: ٤٩-٥٢. وفي سورة الصافات كذلك حديث عن البعث وسخرية الكافرين به: (وَإِذَا رَأَوْاْ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ . وَقَالُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ . أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ . أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ) الصافات: ١٤-١٧. كما نرى فرية القوم بأن الملائكة إناث وهم بنات الله-سبحانه وتعالى علوًّا كبيرًا-: (أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ

(١) المفردات: ٣٧٤.

(٢) تفسير ابن كثير: ٥/٤٠.

قَوْلًا عَظِيمًا) الإسراء: ٤٠، وفي سورة الصافات كذلك حديث عن هذه الفرية: (فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ . أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ...) الصافات: ١٤٩-١٥٧، وكأن سورة الإسراء كانت النداء الأخير على العقول الباحثة عن الهدى والرشاد، قبل أن تنتقل الدعوة إلى مرحلة ومكان جديدين، وطريق يشرع فيه الجهاد؛ ومن ثم نرى وصف الشجرة بالملعونة بعد هذا الحديث المفصل عنها في ثلاث سور سابقة؛ إن اللعنة ستحل عليهم نتيجة عدم إعمال الفكر والتمسك بتقاليد الآباء والأجداد الضالة الكافرة (إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا . ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا) الإسراء: ٤٧-٤٨. إن الضلال بلغ نهايته معهم، ولا يجدون حجة يركنون إليها إلا الادعاء والهذيان بالسحر تمويهًا وتكذيبًا.

وما كان من الله تعالى في تلك الفترة المكية الأخيرة، بعد كل ما حدث من القوم من افتراءات؛ إلا أن تبدأ سورة الإسراء بهذا التنزيه والتقديس لله تعالى بعد تطاول القوم الكثير؛ ومن ثم ندرك سر تحول الأسلوب القرآني المكي من (سَبَّح، يُسبح، سَبِّح) إلى التعبير بالاسم الذي وضع موضع المصدر (سبحان) وكأنه إيذان بالإعراض عن القوم وعدم الاعتداد بهم وبما يتطلبه خطابهم، فأثنى الله -تعالى- على نفسه بما هو أهله في مطلع السورة، فضلا عن أن تلك السورة الكريمة تبدأ فيها إرهاصات أسلوب القرآن المدني من ذكر بعض الأحكام (وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا...) الإسراء: ٢٣-٣٨.

ولذلك رأى بعض العلماء وقوع آيات مدنية في السورة؛ لكن الشيخ الطاهر رد ذلك بقوله: " ويظهر أنها نزلت في زمن كثرت فيه جماعة المسلمين بمكة، وأخذ

التشريع المتعلق بمعاملات جماعتهم يتطرق إلى نفوسهم، فقد ذكرت فيها أحكام متتالية لم تذكر أمثال عددها في سورة مكية غيرها عدا سورة الأنعام ".[١]

وعلى كل فهو إيذان بالتحول، وعدم مبالاة بتكذيب القوم، وكأنه كان النداء الأخير في صورة هاتين الآيتين الماديتين، فهو الابتلاء الأخير والفتنة الشديدة التي تهز العقول، فيراجع كل واحد عقله ونفسه ويختار ما يرضاه لعاقبته.

وفي التسبيح المقتضي للتعجيب من قدرة الله-تعالى-" إدماج لرفعة قدر محمد -صلى الله عليه وسلم-وإثبات أنه رسول من الله، وأنه أوتي من دلائل صدق دعوته ما لا قبل لهم بإنكاره". [٢]

ثم كان نبأ بني إسرائيل في بداية السورة وإفسادهم في الأرض مرتين وأن الكرة الأخيرة كانت عليهم تسليةً للنبي -صلى الله عليه وسلم- وتحذيرًا للمشركين من أن طريق الدعوة سيتغير ولات حين مناص، وقد أعذر القرآن الكريم والنبي-صلى الله عليه وسلم- في التبليغ والوعظ والنصح على مدى السنين السابقة وفصلت الآيات ترغيبا وترهيبا (وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا...) الإسراء: ١٢-١٧.

وكان مما فُصلت أخباره خبر تلك الشجرة التي اتخذتموها سخريًّا؛ فها هي الآن ستكون سبب لعن لكم، " فهاتان آيتان من آيات الله المادية، وهما القول بالإسراء، والقول بتلك الشجرة التي تنبت في أصل الجحيم، وفى هاتين الآيتين فتنة للناس، أي لهؤلاء المشركين، كما كانت الآيات المادية في الأمم السابقة فتنة لتلك الأمم، وأنه إذا كان المشركون يريدون آيات مادية فهاتان آيتان مادّيتان، أو شبه ماديتين، وقد كانتا فتنة لهم؛ فهل تزيدهم الآيات المادية إلا فتنة إلى فتنة؟ وفى قوله تعالى: «وَنُخَوِّفُهُمْ، فَما

---

(١) التحرير والتنوير: ٦/١٥. ويراجع: المحرر الوجيز: ٤٣٤/٣، الرازي: ٢٩١/٢٠، البيضاوي: ٤/٦، روح المعاني: ٣/٨.

(٢) التحرير والتنوير: ١١/١٥.

يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْياناً كَبِيرًا» إشارة إلى أن هذه الآيات المادية أو شبه المادية، هي نذير بلاء وفتنة، ومطلع عذاب عاجل يقع بالمشركين، إن هم أصروا على موقفهم هذا الذي يقفونه من آيات الله."[1] فوصفت الشجرة هنا باللعن وهي صفة الشيطان الذي شبهت به الشجرة؛ ومن ثم نرى حديثًا مختلفًا عن الشيطان في هذا النداء الأخير قبل الهجرة: (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا) إلى قوله: (وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ) الإسراء: ٦١-٦٤، إن الشيطان الملعون مسلط عليكم من اليوم بعد أن أقمنا عليكم الحجة ودعوناكم إلى إعمال عقولكم بطريقة صحيحة، لكن أقيستكم كانت محدودة ضيقة بشأن الشجرة التي تنبت في جهنم وكون طلعها كرءوس الشياطين، وأنكرتم قدرة الله -تعالى- وكفرتم بحكمته، شأنكم شأن إبليس الملعون الذي أبى أن يسجد لآدم لكونه مخلوقًا من الطين، ومن هنا نفهم سرَّ الجمع بين معجزة الإسراء والشجرة الملعونة واعتبارهما فتنةً واختبارًا وابتلاءً يمحص الله به من يدخل في دينه ويقبل حكمه وشرعه كي يكون على استعداد بعد ذلك لأن يتحمل الشدائد والمصاعب في سبيل نصرة الله ونصرة دينه على يقين بأن هذا هو الحق المبين؛ إن سر الجمع يتمثل في جعل شجرة الزقوم آية ومعجزة مثل معجزة الإسراء - وإن كان أسلوب الآية يقرر تفاوتًا بين المعجزتين بتوسيط قوله: "إلا فتنة" بينهما وتقديم الرؤيا لبيان أنها الأدخل في الفتنة- وهذا الجمع وتلك الإشارة إلى أن الشجرة آية كالإسراء - (وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْأَيَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا) الإسراء: ٥٩- يؤكدان ما قررته من أن غرض التشبيه في سورة الصافات هو ترشيح معنى الفتنة، وأن المؤمن الصادق لا بد أن يعلم أن قدرة الله تفوق كل قدرة؛ ومن ثم تتبين قيمة التشبيه في هذا السياق والحكمة من إيراده.

---

(١) التفسير القرآني للقرآن: ٨/٥١٤.

٣- السياق هنا معادل لسياق النعيم السابق الذي يختص به عباد الله المخلصون - بفتح اللام - أي الذين أخلصهم الله لعبادته، وهو سياق يبدأ بقوله تعالى: (إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ . أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ) الصافات: ٤٠-٤١، ثم تفصل ألوان هذا الرزق، لكن الصفة الأساسية هي (معلوم)، والتي هي معادل الصفة الأساسية في جانب العذاب (فتنة)؛ فرزق عباد الله المخلصين بيّنٌ معلومٌ واضحٌ؛ لأنَّ الله - تعالى - لا يريد لهم زيغا ولا اضطرابا ولا افتتانا ولا حيرة؛ ومن ثم نرى تفاصيل ألوان نعيم المؤمنين التي أعدت لهم في الآخرة - على الرغم أنه مما لم تره عين ولا خطر على قلب - إلا أنهم يُحدَّثون عنه بما هو معلوم من مفردات ومعان ومسميات دنيوية، كما قال تعالى: (وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا) البقرة: ٢٥؛تأنيسًا لهم ونفيًا للوحشة عن خواطرهم، وكذلك الأمر هنا ترى المعاني والصور مألوفة معلومة: (فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ . فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ . عَلَىٰ سُرُر مُّتَقَٰبِلِينَ ...) الصافات: ٤١-٤٩، وتأمل تشبيه قاصرات الطرف بالبيض المكنون، وما فيه من الوضوح والصفاء والتلألؤ والإشراق، بعد نفي كل أنواع الفساد والتعب والسكر والصداع بعد تناول شراب الجنة وكئوسها، ووصف الكأس أو الشراب ذاته بالبياض، وقارن ذلك بما في سياق الفتنة والخلط والعذاب النفسي والتوزع العقلي بين تقاليد وموروثات ضالة منكرة وبين دعوة جديدة يحمل لواءها من لم يجربوا عليه كذبًا ولا خيانة ولا شعرًا ولا سحرًا ولا كهانة...، كل ذلك يجعل للتشبيه هنا قيمة ذاتية لا يمكن الاستغناء عنها؛ لأنه يتصاعد بدرجة المبالغة في الفتنة معنى وأسلوبًا وتصويرًا، ولما كانت الرسالة خاتمة والدعوة خالدة كانت الفتنة باقية ومرادة في كل عصر للتمحيص والتمييز حتى ينوء بأعباء التكليف من هو أهل له، والتشبيه شاهد البقاء ودليل الخلود؛ لأن الفتنة به لا تقتصر على الكفار الأوائل وسابقي الظالمين، لكنها تمتد امتداد الدعوة، وتخلد خلود الصراع بين الإيمان والكفر والحق والباطل وعبادة الله وعبادة غير الله.

كما نجد في سياق النعيم السابق والمعادل لهذا السياق ما يمهد لمعنى الفتنة العظيم والمسيطر على السياق، وذلك في قوله تعالى: (قال قائل منهم إني كان لي قرين...) الصافات:٥١-٦١، إنه مشهد متصل أشد اتصال بسياق الفتنة؛ لأنه يصور حوارًا لا محالة واقع محقق في الآخرة بين ذلك المؤمن الذي هو من عباد الله المخلصين المنعمين، وبين صاحب له يعذب في سواء الجحيم، وكان قد أراد فتنته حينما أنكر عليه إيمانه بالبعث وبالآخرة، ولولا نعمة الله وفضله لكان ممن يشهدون ويحضرون معه هذا العذاب الأليم، لكن الأمر كان واضحًا - بفضل الله (تأمل: (المخلصين بفتح اللام)- ولذلك ختم المشهد بقوله: (إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ . لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ) الصافات: ٦٠-٦١، إن تكرار الإشارة وكثرة المؤكدات تقرران وضوح الأمر في تلك النفوس المؤمنة التي أخلصها الله -تعالى-، مقارنة بمن اختاروا طريق الحيرة والشك والفتنة التي تكون كثيرًا باستماع المرء لأصوات أخرى تريد أن تجره معها إلى الهلاك والضلال، مثلما قال أبو جهل ونظراؤه لأتباعهم: يخبر محمد عن النار أنها تنبت الأشجار، وهي تأكلها وتذهبها، ففتنوا بذلك أنفسهم وجملة أتباعهم.

وقال أبو جهل: إنما الزقوم: التمر بالزبد، ونحن نتزقمه، فهذا ما يوعدكم به محمد، وهذا عناد منه وكذب، فإنه من العرب العرباء وهم إنما يطلقونه على شجرة مسمومة يخرج لها لبن متى مس جسم أحد تورم فمات، والتزقم البلع الشديد للأشياء الكريهة وأما الزبد بالرطب فيسمى: ألوقة. وقد سماها القرآن بهذه الإضافة كأنها مشتقة من الزقمة بضم الزاي وسكون القاف وهو اسم الطاعون، وقال ابن دريد: لم يكن الزقوم اشتقاقا من

التزقم وهو الإفراط في الأكل حتى يكرهه، وهو يريد الرد على من قال: إنها مشتقة من التزقم وهو البلع على جهد لكراهة الشيء. (١)

وقد صرح لهم بهذا المعنى قبل في قوله تعالى: (فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ) الصافات: ٣٢، فلن يجدي جدال الأتباع والمتبوعين يوم الدين.

ما زلنا مع سياق النعيم والرزق المعلوم المعادل لسياق الفتنة، فالاستثناء المنقطع في بداية هذا السياق (إلا عباد الله المخلصين) يمثل دقة تخلص هؤلاء المصطفيْن من العذاب واللازم منه تخلصهم من الغواية والفتنة الواقعة بين الظالمين وقرنائهم ومن على شاكلتهم حينما يُلقِي كل منهم باللائمة على صاحبه يوم الدين، وأنهم كانوا يفتنونهم ويصدونهم عن اتباع الحق بما لهم من قوة وسلطان، فيرد عليهم بأنهم قوم طاغون لم يختاروا الإيمان أصلا (فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَآئِقُونَ . فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ . فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ) الصافات: ٣١-٣٣.

فاستثناء (عباد الله المخلصين) من قوله: (فإنهم يومئذ في العذاب مشتركون) أو من قوله: (إنكم لذائقو العذاب الأليم) هو استثناء منقطع يبرز صعوبة النجاة من الغواية والفتنة، ومشقة ذلك على العباد لكثرة شياطين الإنس والجن، والحث على الغواية والضلال، وأنه لن ينجو من براثن تلك الفتنة إلا من اصطفاه الله وأخلصه لعبادته، وهذه هي بلاغة الاستثناء المنقطع الذي صورته صورة المتصل. (٢) وهذا مقام قدرة الله – تعالى – الذي يهدي من يشاء، وينجي من يشاء، ويتناسب مع هذا

---

(١) يراجع: الطبري: ٢١/١٧،٤٨٦/٥٣، البغوي: ٣٣/٤، المحرر الوجيز: ٤٦٨/٣، الخازن: ١٣٥/٣، الرازي: ٣٣٦/٢٦، القرطبي:٥٥٢٩/٨، ٨٥/١٥ ، ابن كثير:١٧/٧، البحر المحيط:١٠٦/٩، النيسابوري:٥٦٢/٥، التحرير والتنوير:١٢٢/٢٣-١٢٣.

(٢) يراجع: الاستثناء المنقطع في القرآن الكريم – مدخل إلى بلاغته، د. وليد إبراهيم حمودة: ١٥٥٤.

المقام –في سياق شجرة الزقوم– ما صُدر به هذا السياق من قوله تعالى: (إنا جعلناها فتنة للظالمين) فهو كلام تحيط به عظمة القدرة، ويعلوه جلال الألوهية، وهذا دليل كون تلك الشجرة وما وصفت به آية من آيات الله التي سيقت لأجل الفتنة، كناقة صالح التي اختصت من بين معجزات الأنبياء بالذكر في سياق الشجرة الملعونة في سورة الإسراء: (وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ فَظَلَمُواْ بِهَاۚ وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا) الإسراء: ٥٩. وتأمل الوصف بـ (مبصرة) هنا، ووصف آيات موسى التسع بـ (بصائر) الإسراء: ١٠٢، بعد اتهام فرعون له بالسحر، وهو الاتهام ذاته للنبي –صلى الله عليه وسلم– في سورة الصافات (وَقَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٌ) الصافات: ١٥.

وتكرار ذكر عباد الله المخلصين وبثه في السورة على هذا النحو والدلالة يتسق مع خطورة الفتنة وشدتها، وأنه لا نجاة منها إلا لمن أخلصه الله – تعالى – وكَتب له الهداية والرشاد، وتفصيلُ ذلك في السياقات المختلفة أمر يطول ولا يغني عنه إيجاز.

وتدبر التعبير بقوله تعالى: (إن كدت لتردين) ودلالته على شدة المقاربة والوقوع في خطر الفتنة والإغواء والصد عن سبيل الله –تعالى– وإنكار البعث واليوم الآخر، وعلى الرغم من تحقق نجاة هذا المؤمن الصادق الذي تعرض لتلك الفتنة فإنه يلتفت إلى أصحابه في الجنة متسائلا: (أفما نحن بميتين إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعذبين)؛ إن هذا التساؤل ما هو إلا أثر شدة تلك الفتنة، وكأنه لا يصدق نجاته منها، هذه هي الدلالة المناسبة للسياق الكلي، ثم يأتي ما قرره العلماء من أن الاستفهام هنا للتحدث بنعمة الله وللاغتباط بحاله واكتمال سعادته. [1]

---

(١) يراجع: الكشاف: ٢١٢/٥، النسفي: ١٩٣/٣، إرشاد العقل السليم: ٣٢٧/٥، السراج المنير: ٣٧٩/٣.

٤- وفي نهاية الحديث عن هذا التشبيه المعجز واقتضاء السياق له ثمة إشارة سريعة إلى كلمة وردت في السورة الكريمة مما يعد من المتشابه اللفظي في القرآن الكريم، قد يكون ما سقناه من توجيه خاص في بلاغة التشبيه برءوس الشياطين مفيدًا وذا قيمة في إدراك سر هذه الكلمة الكريمة، وهي (ونجيناه) في قوله تعالى - عن سيدنا نوح عليه السلام- : (وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ) الصافات:٧٦، وقد وردت هذه الكلمة بهذه الصيغة في عدة آيات أخرى من السورة، وهي: قوله تعالى-في حق موسى وهارون عليهما السلام- : (وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ) الصافات:١١٥، وقوله تعالى -في حق لوط عليه السلام- : (إذ نجيناه وأهله أجمعين) الصافات:١٣٤، بخلاف لفظ (أنجينا) في مواضع أخرى[1]، فأرى - والله أعلم- أن التعبير بهذه الصيغة هنا - بما فيها من دلالة على التكلف والشدة التي ينبئ بها التضعيف -يتناسب مع معنى الكرب، وكأن التنجية من الكرب - وهو أمر نفسي روحي - يتطلب مشقة وعنتًا وجهدًا أكثر من النجاة من العذاب المادي؛ ثم إن فرحة النجاة من العذاب النفسي والقلبي والعقلي أعظم من فرحة النجاة من العذاب المادي، يتفق ذلك مع درجة (المخلَصين)، وكذلك مع النجاة من الفتن التي تتعلق بالنفس والروح والعقل أيما تعلق. مع تنزيه الله تعالى عن الجهد وشدة العنت والمشقة؛ فما هو إلا تصوير باللفظ للتفضل العظيم على مَن نُجِّي.

ثانيا: التشبيه في سورة الدخان:

(إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾)

(١) ورد لفظ (أنجينا) في:الأعراف:٦٤، ٧٢، ٨٣، الشعراء: ٦٥، ١١٩ ، النمل: ٧٥، العنكبوت: ١٥. وورد لفظ (نجينا) في: يونس: ٧٣، الأنبياء: ٧٦، ٨٨، الشعراء: ١٧٠.

بدأ السياق باستئناف الإخبار عن شجرة الزقوم، وأنَّ طعامها هو جزاء الأثيم أي كثير الذنوب والآثام، بخلاف سياق سورة الصافات (أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم) الذي وقع معادلا لسياق الحديث عن عباد الله المخلصين وما أُعِدَّ لهم من ألوان النعيم.

ورأى الشيخ الطاهرُ هذا الاستئنافَ خروجًا على مقتضى الظاهر؛ إذ الأصلُ أن يبدأ الكلام بالإخبار عن صنف المعذبين المقابل للمنعَّمين السابقين، لكنه عدل عن ذلك إلى الإخبار عن شجرة الزقوم اهتمامًا بالإعلام بحال هذه الشجرة. [1]

والظاهر أنه ليس خروجًا على مقتضى الظاهر؛ لأنَّ صنف المنعَّمين المقابل لهذا الصنف المعذَّب تأخر في قوله سبحانه: (إن المتقين في مقام أمين)، فهذا السياق المتأخر عن المتقين هو ما يعادَل به سياق شجرة الزقوم التي يأكل منها الأثيم، وليس ما ظنه الشيخ الطاهر –رحمه الله– سياقا متقدمًا؛ لأن ما تقدم كان حديثًا عن نجاة بني إسرائيل من فرعون ووراثتهم (جنات وعيون وزروع ومقام كريم)، ثم استأنف الحديث بقوله: (إن هؤلاء ليقولون إن هي إلا موتتنا الأولى وما نحن بمنشرين) وأنهم سيهلكون كما أهلك قوم تُبَّع بإجرامهم وعتوهم؛ تحقيقًا للحق، ثم إن ميقاتهم جميعًا يوم الفصل الذي لا يُنصَر فيه إلا من كُتبت له رحمة العزيز الرحيم.

يلاحظ من سرد هذا السياق أن ليس ثمة ذكر فريق محدد من المؤمنين والنص على ما ينتظرهم من ألوان النعيم – مثل (عباد الله المخلصين) في الصافات – كي يكون معادلا لصنف الأثيم هنا؛ لأن ما سبق من الطغاة ومن صنوف المعذَّبين أيضًا.

فسِلكُ النظم الشريف هنا مغايرٌ لما عليه في سورة الصافات من الابتداء بصنف عباد الله المخلصين، ثم ذِكر الظالمين الذين نُزُلهم شجرة الزقوم، وهذا واضحٌ تماما من الإشارة في بداية السياق: (أذلك خير نزلا...)، بخلاف ما هنا، حيث بُدئ بالحديث عن شجرة الزقوم وجعلها في أنف السياق دون التعبير بـ: (إن الأثيم طعامه شجرة الزقوم) مثلا؛ لأن السياق قاصدٌ هنا إلى هذه المواجهة الحاسمة والصريحة

([1]) التحرير والتنوير: ٢٥/٣١٤.

والمفاجئة، بخلاف ما عليه في سورتي الواقعة والصافات؛ لأن ما في الدخان هو آخر ما نزل بشأن تلك الشجرة، وقد مرَّ في السورتين – بالإضافة للإسراء – تمهيدٌ للتعريف بها والتخويف منها وبيان فتنتها، تقديمًا للعذر وإفساحًا للإنابة والتصديق والتذكر.

تدبر سلك النظم في قوله سبحانه: (أَذَٰلِكَ خَيۡرٞ نُّزُلًا أَمۡ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ) الصافات:٦٢، (ثم إنكم أيها الضالون المكذبون لآكلون من شجر من زقوم) الواقعة:٥١-٥٢، لا ريب أنك تجد مهلة وتريثًا في ذكر الشجرة، وهو ما تفقده في عبارة سورة الدخان التي نزلت أخيرًا.

إنَّ القارئ والمستمع لقوله: (أذلك خير...) يدرك أنّ لديه وقتًا كي يقارن ويوازن ويُعمل عقله؛ إذ ترده الإشارة في بداية السياق إلى المعادل السابق والنظر في جزائه وثوابه والوقوف على سبب ذلك النعيم. وكذلك الأمر في سياق سورة الواقعة – والمهلة فيها أطول لأنها الأولى نزولا، والبُطْءُ مسبَّبٌ عن طول العبارة، ومعنى "ثم"، وأزمنة المد الناتجة من أحكام التلاوة وهو باب عظيم من أبواب الإعجاز- حيث نجد صنف الضالين المكذبين منصوصًا عليه بصفته المهلكة، مقابلا بصنف سابق هم أصحاب اليمين وما أعد لهم من صنوف النعيم.

وفرقٌ آخر وهو أن السياق في سورتي الصافات والواقعة أقرب إلى المستقبل وأنه لمَّا يقع، لاحظ (لآكلون) في كل منهما، بخلاف ما يومئ به الزمن في سورة الدخان من الوقوع، مثل: (خذوه...صبوا...ذق...إن هذا)، ولذلك عُبِّر في الحج بقوله: (يصب من فوق رءوسهم الحميم)الحج:١٩؛ "لأن العذاب في الدخان أمر معنوي لا يُصَبُّ، والصَّبُّ مستعارٌ للتقوية والإسراع، فهو تمثيلية اقتضاها ترويع الأثيم حين سمعها، فلما كان المحكيُّ هنا القولَ الذي يسمعه الأثيم صِيغ بطريقة التمثيلية تهويلا، بخلاف ما في الحج الذي هو إخبار عنهم في زمن هم غير سامعيه فلم يُؤت

بمثل هذه الاستعارة إذ لا مقتضى لها." [1] فالموقف والمقام في الدخان كأنه واقع محقق مشاهدٌ مسموعٌ.

ولعل ما يدعم ذلك أيضًا التعبير هنا بالإفراد (الأثيم)، مقارنًا بالضالين المكذبين في الواقعة، وبالظالمين في الصافات؛ حيث إنّ المقام فيهما – كما ذكرت – أقرب إلى الدنيا والوعظ والتذكير والوعيد، وهم جماعات متعاضدة، فلعل بعضهم يعظ بعضًا ويتفكرون فيما بينهم، فينجو آحادٌ من ضلالهم وظلمهم ويدركون حقيقة تكذيبهم؛ لأن خطاب الجماعة يبعث فيها التفكر وينبت فيهم حوارًا متنوعا إن لم ينتفع به الجميع، فلا شك أن أفرادًا منهم تفيء إلى الحق والرشاد.

ثم انتهى الخطاب في المرحلة الأخيرة إلى المفرد (الأثيم)، وقد بلغ الوعيد غايته؛ حتى إنه ليجد ألم العذاب يغلي في بطنه غليًا كغلي الحميم، فلا يستطيع أن ينكره، ولا أن يشك فيه، إنه يتألم وحده، لا يشاركه في ألمه أحد من صنوف جماعات الضالين والظالمين والمجرمين والمكذبين.

يقول الدكتور محمد الأمين الخضري–رحمه الله–: "وهذا هو النظم الكريم يجسد الإحساس بالوحشة ويضاعف ألم العذاب بانفراد الكافر في عذابه، يطعم وحده شر الطعام، ويتجرع بمفرده مر الشراب، فيؤثر ضمير المفرد في الغيبة والخطاب، تحقيقًا لهذا الغرض: (إن شجرة الزقوم طعام الأثيم...). وفاقٌ وتجانسٌ بين دنيا الكافر

---

(١) التحرير والتنوير: ٢٥/٣١٥-٣١٦ بتصرف يسير. قال الآلوسي:" (ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذابِ الْحَمِيمِ) كأن أصله صبوا فوق رأسه الحميم، ثم قيل: صبوا فوق رأسه الحميم، ثم قيل: صبوا فوق رأسه عذابا هو الحميم؛ للمبالغة بجعل العذاب عين الحميم، وهو مترتب عليه ولجعله مصبوبًا كالمحسوس، ثم أضيف العذاب إلى الحميم للتخفيف، وزيد مِنْ للدلالة على أن المصبوب بعض هذا النوع، فهناك إما تمثيل أو استعارة تصريحية أو مكنية أو تخييلية." روح المعاني: ١٣/١٣٢. وهذا دليل على أن التدرج في الدخان قد بلغ غايته.

وأخراه، إحساس بالتفرد في العزة، وإحساس بالتفرد في العذاب. قابل ذلك بحديث الله عن المؤمن عقب ذلك وكيف ساقه الله بصيغة الجمع، العاكس لروح الجماعة وضمير الأمة: (إن المتقين في مقام أمين...) فكان التقابل والالتقاء نعيمًا فوق النعيم، كما كان الانفراد والاغتراب عذابًا فوق العذاب." [١]

ولذلك اتجه التشبيه في الدخان نحو الذوق الذي يخص كل فرد يَلقَى حَرَّ نارِهِ وسعيرَ ألمِه وحده، لا يشاركه فيه أحد.

ومما يتلاءم مع جميع ما سبق الإتيانُ بالتشبيه؛ حيث شُبِّه طعامُ شجرة الزقوم بالمهل –وهو دردي الزيت أو مذاب المعادن أو عكر القطران أو الصديد– ووجه الشبه السواد أو الذوبان، وهو تشبيه مقيد بحال أو صفة (يغلي في البطون)، ثم شُبِّه هذا الغليان بغلي ماء شديد الحرارة قد انتهى غليانه حتى ليَتطاير، والوجه هو هيئة الغليان. [٢]

---

(١) الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ: ٣٠. وقد عمَّمَ د. الخضري هذا الحكم في كتابه، لكن ثمة سياقات كثيرة في القرآن عن العذاب نجدها واردة بصيغة الجمع، كما معنا في سياق سورتي الصافات والواقعة؛ فالصحيح أن هذا الحكم من التعبير بالإفراد في مقامات العذاب كي يكون الانفراد والاغتراب عذابًا فوق العذاب حكمٌ لا يطرد؛ ويبقى للجمع دلالاته ومقاصده وكذلك للإفراد، توافقًا مع اعتبارات أخرى.

(٢) البحر المحيط: ٤٠٧/٩–٤٠٨، التحرير والتنوير: ٣١٥/٢٥. وفي الإعراب وجوه كثيرة اختار منها الآلوسي أن يكون الجار والمجرور أو الكاف في محل رفع خبر مبتدأ محذوف، والجملة استئناف لبيان حال الطعام، أي هو كالمهل أو مثل المهل، وقوله عزّ وجلّ:(يَغْلِي فِي الْبُطُونِ) خبر ثان لذلك المبتدأ، وقيل: حال من الضمير المستتر في الجار والمجرور فيكون وصفا للطعام أيضا. وقال أبو عبيد: هو حال من المهل، وقيل: صفة له لأن أل فيه للجنس نحو: أمرّ على اللئيم يسبني، ويعتبر داخلا في التشبيه، وأنت تعلم أن غليان الطعام في البطن فيه مبالغة، أما التشبيه بمهل يغلي في البطن، فلا. يراجع: روح المعاني:١٣١/١٣.

و"يغلي" بالياء قراءة حفص والضمير عائد على الطعام، وقراءة الجمهور: "تغلي" بالتاء أي الشجرة، وقرر الطاهر أن إسناد الغليان إلى الشجرة مجاز لأن الذي يغلي ثمرها.[1] قلت: وليس بلازم ولا متعيَّن أن يكون مجازًا؛ لأنَّ أحوال الآخرة مباينة للدنيا، ثم إن جَعْلَ الطعام هنا هو الشجرة ذاتها لا طلعها -كما في سياق الواقعة والصافات- يتسق مع هذا التدرج في بيان الوعيد بتلك الشجرة والذي انتهى إلى غايته في تلك السورة، ففي الصافات: (طلعها كأنه رءوس الشياطين فإنهم لآكلون منها) وفي الواقعة: (لآكلون من شجر من زقوم) فذِكر (مِن) يدل على أكل الثمر، بخلاف ما في الدخان؛ دلالة على المبالغة في التعذيب.

ونخلص الآن إلى بيان سر إيراد التشبيه وهو ما يتمثل في المبالغة في الفتنة بتلك الشجرة، ولا تتم تلك المبالغة إلا بهذين التشبيهين اللذين وردا في السياق، فهي تتفق مع الصافات في ترشيح معنى الفتنة المنصوص عليها لفظًا في السورة؛ إلا أنَّ الفتنة هنا تعاظمت بعد أن ذُكِرت مرة باللفظ في قوله تعالى: (ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون) الدخان:١٧، ومرة بما يدل عليها في قوله تعالى: (وآتيناهم من الآيات ما فيه بلاء مبين) الدخان: ٣٣؛ فالآيات التي توالت على بني إسرائيل وكفروا بها كانت فتنة لهم واختبارًا. ونستطيع أن نوجز العوامل الأخرى التي دعت إلى التشبيه هنا فيما يأتي-مع التشديد على معنى المبالغة في الافتتان-:

١- آخرية نزول هذا السياق فيما يتعلق بشجرة الزقوم، فاقتضى ذلك المبالغة في الوعيد والفتنة.

٢- القصدُ إلى المواجهة الحاسمة وانتهاء مراحل التدرج في الوعيد، ويظهر ذلك جليًّا في بناء السياق على الابتداء بشجرة الزقوم ووضعها موضع الابتداء، وكذلك تأخير الحديث عن صنف المتقين بخلاف ما في الصافات والواقعة.

---

(١) البحر المحيط: ٤٠٨/٩، التحرير والتنوير: ٣١٥/٢٥، الحجة: ٣٢٤.

٣- قربُ السياق من الواقعية المرئية المسموعة كما سبق تفصيله، ويؤكد ذلك ختام السياق بقوله تعالى: (إن هذا ما كنتم به تمترون) الدخان: ٥٠، بخلاف ما في الصافات من قوله تعالى: (إنهم ألفوا آباءهم ضالين فهم على آثارهم يهرعون) الصافات: ٦٩-٧٠، إنه تعليل لعذابهم، وفي التعليل بيانٌ للأسباب وفسحةٌ وإمهال لمراجعة النفس وإعمال العقل، وهو ختامٌ تناسب مع ابتداء السياق المرتكز على الاستفهام: (أذلك خير)، الموجَّه إلى العقول، وعلى الرغم من اعتباره من سوق المعلوم مساق غيره، وأنه "للتنبيه على البون بين حال المؤمن والكافر" كما قر الطاهر؛ إلا أنَّ دلالة الطلب الباقية تعطي الفرصة وتمد الأمد.

ولا مهلة في الدخان ولا استفهام ولا تفكُّر ولا أمَد، ونظيره قوله تعالى: (هذه النار التي كنتم بها تكذبون) الطور: ١٤.

ولعل الآية تلفت إلى تلك المرحلة الأخيرة بخصوص الشجرة، إنها مرحلة الشك والامتراء، كما هو ظاهر لفظ (تمترون)، وكما في بدايات السورة: (بل هم في شك يلعبون) الدخان: ٩، وتأتي مرحلة الشك المنصوص عليه هنا بعد مرحلة الضلال المنصوص عليه لفظًا كذلك في الصافات والواقعة، ويشير ذلك إلى التدرج، وأن منهم من تغيرت حالته من الضلال والإنكار والظلم إلى الشك؛ فبولغ هنا في الفتنة عن طريق نوعية التشبيه استئصالا لأسباب الشك ودفعًا إلى اليقين، فالخبر هنا طلبيٌّ. والعدول عن الإفراد إلى التعبير بالجمع في ختام السياق تنبيهٌ إلى أنَّ الشك الصادَّ عن اليقين يعظم في صحبة الجماعات الضالة، قال تعالى: (وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ) الأنعام:١١٦.

٤- استحواذ صيغة الإفراد (الأثيم) على السياق إمعانا في الوعظ ومبالغة في الوعيد، وإشعارًا بأن تلك هي النهاية التي لا مزيدَ بعدها؛ فليحزِم كل فردٍ رأيَه، فقد تلاشت الجماعات.

فضلا عن دلالة صيغة (فعيل) على المبالغة، إنه صاحب إثم دائم كثير؛ فناسب ذلك النهاية والمبالغة في الفتنة.

٥- التركيز على الشجرة ذاتها دون طلعها.

٦- تعلق التشبيه هنا بالحس الباطني الأليم والغليان الذي هو أشد إيلامًا من المنظر القبيح الذي ركَّز عليه التشبيه في الصافات.

٧- كثافة الصورة التشبيهية (كالمهل يغلي في البطون كغلي الحميم) والتركيز على صفة الغليان تعظيمًا لمعنى الفتنة التي بلغت النهاية.

٨- تناسب عبارات الإهانة الواردة في السياق (خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم . ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم . ذق إنك أنت العزيز الكريم) مع الغاية في الفتنة؛ ثم إنها تتناسب مع ما سبق في قوله سبحانه: (ولقد نجينا بني إسرائيل من العذاب المهين).

٩- الاكتفاء بالحديث عن فرعون في السورة خلاف ما في الصافات، والتركيز على فتنته وختام القصة بأن بني إسرائيل نزل عليهم كثير من الآيات التي فيها بلاء مبين؛ ففرعون يمثل النموذج الأعلى في العتو والطغيان، وهو ما يتسق مع ما هنا من نهاية الوعيد بتلك الشجرة، ويمكن مقارنة ذلك بالحديث عن قصة موسى وفرعون في الصافات التي بدئت بقوله تعالى: (وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ . وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ...) الصافات: ١١٤-١٢٢، فهو حديث نصر ونجاة وهداية وسلام، ولذلك رُكِّز على موسى وهارون، كما هو الحال مع القصص الأخرى الواردة في السورة (نوح، إبراهيم، إلياس، لوط، يونس) والنهايات السعيدة للأنبياء وأقوامهم وشيوع معاني النجاة والسلام والإحسان والثواب العظيم وأن الطريق لنيل ذلك كله هو الإيمان (إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ . إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ) الصافات: ٨١، ١١١، ١٢٢، ١٣٢. بخلاف سورة الدخان التي اقتصرت على ذكر فرعون وفتنته وقومه، وبلغ التركيز غايته بحيث لم يرد ذكر موسى -عليه السلام- إلا بصفته: (وَجَآءَهُمْ

رَسُولٌ كَرِيمٌ . أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ . وَأَن لَّا تَعْلُواْ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ) الدخان: ١٧-١٨. وكأنَّ ذِكْرَ نماذج المخلصين المؤمنين المتقين بأسمائهم قد انتهى زمنه؛ لأن السياق هو الأخير، وهو بالغٌ الغايةَ في الفتنة والوعيد كما شرحت.

ثالثاً: عدم التشبيه في سورة الواقعة:

مما سبق يتبين سرُّ عدم تشبيه ما يتعلق بشجرة الزقوم من طلع أو طعام؛ وهو انتفاء الفتنة لفظًا ومعنًى في السورة الكريمة، علمًا بأنها نزلت قبل الصافات والدخان، فكان ذِكر شجرة الزقوم فيها هو الذكر الأول، فذكرت مجملة بلا تفصيل، ومطلقة بلا قيود من التشبيه: (ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ . لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ . فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ . فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ . فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ.) الواقعة: ٥١-٥٥.

ولا يمكن أن نسجل هنا جميع ما يؤيد هذا التوجيه من أغراض السورة ومشاهدها ومعانيها وخصائص نظمها الكريم؛ فضلا عن أن "الإكثار من الأدلة كالحجاب الشاغل عن استغراق القلب في لجج المعرفة" [(١)]، ويمكن الاكتفاء بما يأتي:

١- لمَّا كانت السورة مبنية على تقسيم الناس أقسامًا ثلاثة، وبيان ما أعد لكل قسم من النعيم أو العذاب، وإطلاع الخلق على ذلك حتى يكون كالبيان والإعلام؛ نحت السورة نحو التذكير والوعظ الهادئ الطويل قبل أن تقع الواقعة ويكون حال كل صنف بعدها وفق ما قدم قبلها من أعمال.

فالحال حاضر والسياق دنيوي، ومن ثم شاعت محاولات الإقناع في السورة، ترغيبًا وترهيبًا، وغلب النعيم وأهله على القسمة بما لا نجده في القرآن إلا هنا فيما أعلم

---

(١) نظم الدرر: ١٩٧/٢.

(أصحاب الميمنة – السابقون)، ولذلك نجد النبيَّ الكريم –صلى الله عليه وسلم– مأمورًا هنا بقوله سبحانه: (قل إن الأولين والآخرين . لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم) الواقعة: ٤٩–٥٠، وقولُه تعالى: (ثم إنكم أيها الضالون المكذبون. لآكلون من شجر من زقوم) الواقعة: ٥١–٥٢، داخلٌ في مقول هذا القول [١]؛ إنه أول سياق يرد فيه الحديث عن هذا اللون من العذاب، بل إنها مرحلة الترغيب أكثر من الترهيب؛ ومن ثم غاب التشبيه لأي مُكوِّن من مكونات الشجرة؛ لأن طريقة القرآن آثرت أن يكون التشبيه في موضع الفتنة الذي سيأتي في مقامات أشد وعيدًا، ومراحل متأخرة من الدعوة.

٢– ومما يدل على أنها مرحلة الترغيب والتحضيض التي لا تستدعي تشبيهًا يدع الحليم حيرانًا قولُه تعالى: (نحن خلقناكم فلولا تصدقون) الواقعة: ٥٧، فهو استدلال على إمكان البعث وتقريب كيفية الإعادة التي أحالوها، وتقديمُ المسند إليه لتقوية الحكم، وهذا تذكير لهم بما ذهلوا عنه بأن الله هو خلقهم أول مرة، وهو من يعيد خلقهم ثاني مرة، وفي التذكير حضٌّ على التصديق ودفعٌ وإلجاءٌ إليه، قال أبو حيان: "ثم حض على التصديق على وجه تقريعهم بسياق الحجج الموجبة للتصديق، وكأنَّ كافرا قال: ولِمَ أصدِّق؟ فقيل له: أفرأيت كذا مما الإنسان مفطور على الإقرار به؟ فقال: أفرأيتم ما تمنون... وهذه الأربعة التي ذكرها الله تعالى ووقفهم عليها، من أمر خلقهم وما به قوام عيشهم من المطعوم والمشروب، والنار من أعظم الدلائل على البعث، وفيها انتقال من شيء إلى شيء، وإحداث شيء من شيء. " [٢]

---

(١) ينظر: إرشاد العقل السليم: ١٩١/٦.

(٢) البحر المحيط: ٨٨/١٠، وأصله في: الكشاف: ٣٢/٦، المحرر الوجيز: ٢٤٧/٥ وينظر: التحرير والتنوير: ٣١٢/٢٧.

كما يظهر الترغيب والحكمة في قوله تعالى: (فلولا تذكرون) الواقعة: ٦٢، وما فيه أيضًا من حض على التذكر والموعظة وإعلان الإيمان، والمضارع في الفعلين يخيل زمنًا طويلا متجددًا.

٣- وَصفُهم هنا بالضالين في بداية السياق وتقديمُه على (المكذبون) يُشعر كذلك بأنْ ليس السياقُ سياقَ فتنةٍ وتشبيهٍ يزيد من الفتنة؛ لأنّ السياق يهدف إلى إرشاد هؤلاء الضالين وبيان الطريق لهم، ومن ثم كثرت الأدلة وتكرار فِعل الرؤية (أفرأيتم)؛ محاولة في إزالة الغشاوة ورفع حُجُب العماية، بخلاف الوصف بالظالمين والأثيم في الصافات والدخان؛ مما اقتضى التشبيهَ المتسقَ مع إرادة الفتنة والمبالغةِ في وقعها.

فلمَّا كان النظمُ في سياق حض وترغيب وحث على الإيمان قُدَّم وصف (الضالون)، بخلاف قوله تعالى: (وأما إن كان من المكذبين الضالين) الواقعة: ٩٢، في نهاية السورة، حيث قُدِّم وصف (المكذبون)؛ "لأنَّ الكلام هنا على عذاب قد حان حينه، وفات وقت الحذر منه، فبين سبب عذابهم، وذُكِّروا بالذي أوقعهم في سببه ليحصل لهم ألم التندم." (١)

٤- ذكر (شجر) هنا بصيغة اسم الجمع، وهو يذكر ويؤنث (٢)، و(مِن) قبله للابتداء، ثم بُيِّن الشجر بقوله: (من زقوم) فمِن الثانية بيانية، بخلاف ما في الصافات والدخان من إفراد الشجرة وتعريفها بالإضافة (شجرة الزقوم)، فكان الذكر هنا مجملا ودون تشبيه لعدم قصد الفتنة، ومن هنا يحسن ما قاله الطاهر من اعتبار قوله تعالى: (ثم إنكم أيها الضالون المكذبون) -بما فيه من التراخي الرتبي- اعتراضًا بين جملة (إن الأولين والآخرين) وجملة: (نحن خلقناكم).(٣) والبيان هنا للشجر بطريق (من) البيانية؛ "أي

---

(١) التحرير والتنوير: ٣٤٩/٢٧. ويراجع: الرازي: ٤١٤/٢٩، الآلوسي: ١٦٠/١٤.

(٢) يراجع: معاني القرآن للفراء: ٣٨٢/٢.

(٣) ينظر: التحرير والتنوير: ٣٠٩/٢٧.

آكلون أكلا يؤخذ من شجر، هو المسمى الزقوم." [1] لأن المراد هنا التعريف بالشجر وليس وصف ما يتعلق به مما يحقق الفتنة؛ ويؤيد ذلك اعتبار قوله تعالى: (من زقوم) بدلا من قوله: (من شجر) بإعادة العامل [2]، والبدل هو المقصود بالحكم، وفائدته زيادة التقرير والإيضاح، وفي المبدل منه نوع توطئة وتمهيد للبدل، وهو ما يناسب الذكرَ الأول لتلك الشجرة وكذلك التدرج، بخلاف التعريف بالإضافة في الصافات والدخان ففيها نوع قارعة تتسق مع الذكر الثاني ومع قصد الفتنة وشدة الوعيد ونهايته.

ومن ثم ندرك أن السياق هنا في الواقعة لا يطلب التشبيه؛ لأن التركيز على بث وإشاعة هذا الاسم (الزقوم) ومتابعة ردود أفعالهم قبل مرحلة الفتنة الموغلة في الوعيد والتي أسست على التشبيه في الصافات والدخان.

---

(١) التحرير والتنوير: ٢٧/٣١٠ بتصرف.

(٢) ينظر: البحر المحيط: ١٠/٨٦، الدر المصون: ١٠/٢١٠، حاشية الشهاب: ٩/٧٣.

خاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على سيدنا محمد صاحب المعجزات.

وبعد، فهذه بعض نتائج البحث وتوصياته:

١- أثبت البحث عناية البلاغيين بفكرة المقارنة بين المعنى الواحد في صورته الحقيقية، وإذا ما أتى مصوَّرًا بالتشبيه أو الاستعارة، وكان لذلك جذور امتدت منذ عصر قدامة بن جعفر، ولا تخطيء العين تلك الجذور والإشارات قلت أو كثرت، كما رأينا عند الرماني والخطابي وعبد القاهر والسكاكي، وغالبًا ما كانوا يقارنون بين الهيأتين لإثبات فضيلة التصوير وفوائده، من الإيضاح، الاستظراف، الإغراب في الدلالة، الإبداع في المقالة، المبالغة، كثرة الفائدة، التأكيد إثارة الفكر وتحريك الخاطر...، وكانت عبارة السكاكي عبقرية في تلخيص الأمر (التشبيه لا يُصار إليه إلا لغرض)، فلا شك أنه نظر فيها إلى اعتبار الأصل، وأن المتكلم لا يعدل إلى التشبيه إلا لغرض في نفسه يتسق مع المقام والسياق وقرائن الأحوال، وهذا ما يفتح باب النظر والمقارنات على مستوى التطبيق.

٢- لم تتجه غايات ومقاصد كتب الإعجاز والتفسير والمتشابه إلى النظر في سياقات مواضع عدم التشبيه أو عدم الاستعارة في القرآن الكريم؛ ليكشفوا عن سر إيثار النظم الشريف لذلك في مواضعه، مقارَنًا بمواضع التشبيه والاستعارة للمعنى الواحد، وهذا ما فَرض علينا القيامَ ببعضه.

٣- تقرير العلماء - وخاصة الرماني - أن الحِجاج القرآني على الكفار قد ظهر واستبان بأن أُتي في المعنى الواحد بالدلالات المختلفة، يجعل لمثل هذا البحث منزلة في بيان الإعجاز.

٤- خلص البحث إلى أن من وجوه البلاغة القرآنية المعجزة، تنوع التعبير عن المعنى الواحد بين التشبيه والاكتفاء بأصل المعنى، فكان للأصل سياقه الطالب له، دون حاجة إلى التمثيل، وللتشبيه سياقه الخاص الذي استدعاه، بما فيه من دلالات تتسق مع الغرض العام للسورة والسياق القريب.

٥- تقرر في مبحث (الخروج من الاجداث) أن سياق سورة يس بمعزل عن التشبيه وطلبه؛ لأن الحديث عن قوم أصروا على الكفر وحقت عليهم كلمة العذاب، كما بالغوا في إنكار البعث خاصة، فضلا عن أن الآيات سيقت في بيان تحقق وقوع الساعة والبعث والحساب، وسياق هذا شأنه لا يتطلب تشبيهًا لمشهد خروجهم من الأجداث؛ لأنه واقعٌ يشاهدونه حينئذ، فلا يحتاج بيانًا يقرب صورته ويكشف صفتَه.

وذلك بخلاف سياق طلب التشبيه في سورتي القمر والمعارج، فالزمن الحاضر الذي طغى على السياق استدعى التشبيه؛ فما زالت الدنيا قائمة، وما زالوا يسألون عن موعد الساعة والعذاب، فكان للتشبيه فائدة لمناسبته الغرضَ، من التذكير والوعظ، والتخويف والتهديد الباعثيْن إلى الإيمان والهدى، والارعواء عن الكفر والضلال، حينما يُعملون عقولهم في صورتين يشهدون مكوناتهما كل حين.

وبمقارنة حال القوم في مطلع القمر بما في مطلع سورة يس، يتبين أنهم في يس ليس لهم صوتٌ، حق القول عليهم، في أعناقهم أغلال، وهم مقمحون، وضُربت عليهم السدود من كل جانب، فهم في غشاوة لا يبصرون، إلى آخر هذه المعاني التي تفيد أن القوم ليس لهم وجود ولا حضور ولا قول، بخلاف ما في القمر؛ فقد انشق القمر، وكان آية عظيمة بينة، فكان للقوم بيان ومنطق وجدال وأفعال.

إنَّ القوم في يس مفعول بهم، مقهورون مغلوبون من أول السورة إلى نهايتها، وفي القمر لهم نوع حضور وبيان؛ فقد نزلت لمَّا سأل أهلُ مكة النبيَّ صلى الله عليه

وسلم آيةً، فانشق القمر فنزلت، وكذلك في المعارج التي بُدئت بالسؤال، والسائلُ فاعل وحاضر وطالب؛ مما استدعى التشبيهَ في الموضعين دون يس.

كما تبينت بلاغة القرآن المعجزة في مسلك النظم الشريف، وتباين طريقته في موضع أصل المعنى وموضعي التشبيه، حيث بني مع الأصل على الإيجاز، وسلك مع التشبيه سبيل الإجمال الذي أعقبه التفصيل، والإبهام المتبوع بذكر الأهوال والأحوال.

٦- قضت طريقة القرآن في الحديث عن (نساء أهل الجنة) بأن يكون التشبيه خاصًّا بأصحاب المنزلة العليا؛ تفريقًا بين المنازل، وزيادة تنويه وتشريف وتكريم لأهلها؛ لأن التشبيه في مثل هذه المعاني غرضه التزيين، مما يضفي مزيدًا من المعاني والدلالات المادية والروحية.

وردَّ البحث التشبيه في المواضع الثلاثة إلى أصلين رئيسين، هما:

أ- خصوصية صفات مَن استحقوا هذه الصنوف من النعيم المشتملِ على هذه التشبيهات؛ فاستحقوا هذا التكريم الخاص.

ب- القصد إلى المقارنة بين طوائف مختلفة من أهل النعيم والعذاب، وبيان ما أعد لكل طائفة، وما فُضل به فريقٌ على آخر.

ثم كان لكل سياق دلالات أخرى أضافها التشبيه، بخلاف المواضع التي لم تطلب التشبيه أصلًا؛ إما لبناء النظم فيها على الإيجاز، وعدم التفصيل في عد ألوان النعيم، أو لعدم المقارنة بين منازل أو طوائف مختلفة، أو لخصوصية التعبير بلفظ (أزواج) ولعل سرَّ ذلك يرجع إلى أن الرجل يغار من أن تُذكر زوجه ولو بما يَسُرُّ ويُفرح، أو أن يُكشف سِترها أو يُظهَر حُسنها، فكان الاكتفاء بوصفهن (مطهَّرة) مغنيًا عن التشبيه الذي يُحدث نوعا من الكشف والشهرة.

٧- كما لوحظ أن من طريقة بيان القرآن المعجز في هذا المعنى عدمَ إيراد التشبيه عند ذكر (أترابًا) في صفات نساء الجنة، وذلك في سُوَر ص والواقعة والنبأ؛ ولعل سبب ذلك راجعٌ إلى تنحية كل ما يمكن أن يقلل من شأن تلك الصفة القائمة على

معنى الاستواء، فهي صفة ركينة في هذه السياقات؛ ولذلك كان ختم الفاصلة بها في المواضع الثلاثة، ومن ثم لم يُؤت بالتشبيه بالبيض المكنون أو اللؤلؤ أو المرجان؛ لأن التشبيه يُحدث تفاوتًا يخل بالغرض والمعنى المقصودين، وفي موضع ذلك من البحث تفصيل يخص كل سياق.

٨- وَجَّه البحث عدم ذكر نساء الجنة ضمن ألوان النعيم في سورة الطور (والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان)، بكونه سياقًا خاصًا فريدًا، لأنه يجمع بين الآباء والأبناء؛ فلم تُذكر النساء أصلًا؛ لحصول الحياء، وانتفاء كمال التلذذ بهذه النعمة في حضور الآباء أو الأبناء، وقد يكون في الذرية من لم يبلغ فلا تحصل له لذة بذلك، ومن هنا يُفهم إيراد الغلمان في صنوف نعيم هذه الجماعة، والإطناب في تحسينهم وتزيينهم عن طريق تشبيههم باللؤلؤ المكنون، فهذا اللون من النعيم مناسب لهذه الجماعة، ولمَّا لم يتلاءم ذكر النساء معهم ذُكر التشبيه مع الغلمان تحقيقًا للجمال والصفاء والنقاء والنفاسة، فلن يعدم المؤمن في الجنة الحسن والجمال.

٩- انتهى البحث إلى أن عدم تشبيه الولدان في سورة الواقعة يعود سرُّه - والله أعلم - إلى ذكر الحور العين بعد ذلك، والتشبيه التزييني أشد طلبًا في حقهن وأكثر رغبة (وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون)؛ لِما يحصل بهن من كمال اللذة ونهاية المتعة، وإبرازًا للتفاوت فيخلص لهن مشهدُ الجمال. ولمَّا لم تُذكَر الحور العين في سورة الإنسان ألحق التشبيه بالولدان (إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا)؛ لأن في السياق تفصيلًا يقتضي الإطناب في سرد ألوان النعيم والتزيين والتحسين، فاستلزم التشبيه.

١٠- فصل البحث في سر إلحاق شجرة الزقوم بالتشبيه في سورتي الصافات والدخان، فبدا أنه لقصد ترشيح غرض الفتنة في الصافات، تصاعدًا بدرجة المبالغة في الفتنة، ثم إنه حقق بقاء هذا الغرض في كل عصر، ما دامت الدعوة باقية، والقرآنُ متلوّاً؛ لأن في ذلك تمحيصًا للمؤمنين الصادقين، ويتسق هذا مع لفظ (المخلَصين) في السورة الكريمة. وكذلك الأمر في تشبيه سورة الدخان.

بخلاف عدم التشبيه في موضع سورة الواقعة؛ لانتفاء إرادة الفتنة، وعدم الإشارة إليها باللفظ أو المعنى في السياق، ثم إن نزولها قبل الصافات والدخان جعل ذكر شجرة الزقوم فيها هو الذكر الأول، فذكرت مجملة بلا تفصيل، ومطلقة بلا قيود، ثم تدرج التفصيل والوعيد فيما بعد، تناسبًا مع معنى الفتنة وأغراضه الدعوية.

توصيات البحث:

١- يوصِي البحث باستقصاء المعاني القرآنية التي تنوع التعبير فيها بين أصل المعنى والتشبيه، أو الحقيقة والمجاز، ودراستها وفق منهج بلاغي مقارن، علمًا بأن حصرها يتطلب إخلاصًا ودقة وطول تدبر.

٢- إحصاء معاني القرآن الكريم التي وردت على أصل المعنى وجنسه، دون أن تتصرف إلى التصوير والتمثيل، ودراستها دراسة بلاغية.

٣- يقترح البحث وضع (المعجم الموضوعي للبلاغة القرآنية)، وأن يقوم على استقصاء المعاني الجزئية في كتاب الله تعالى، وحصر طرائق عرضها، تمهيدًا للدراسات المقارنة التي تعكف على بحثها، نصحًا لكتاب الله تعالى.

٤- يؤكد البحث على أن ثمة جوانب كثيرة في البلاغة القرآنية تتطلب مزيدًا من النظر، وعديدًا من البحوث والرسائل.

والحمد لله أولًا وآخرًا

وليد إبراهيم حمودة

فهرس المراجع

١- الإتقان فى علوم القرآن ، جلال الدين السيوطى. ت: محمد أبو الفضل إبراهيم . دار التراث، بدون.

٢- أدب الكاتب، ابن قتيبة. ت: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية – مصر، ط رابعة ١٩٦٣م.

٣- إرشاد العقل السليم ، القاضي أبو السعود . ت: عبد اللطيف عبد الرحمن ، دار الكتب العلمية – بيروت ط أولى ١٤١٩هـ – ١٩٩٩م.

٤- أساس البلاغة، الزمخشري. ت: د. محمود فهمي حجازي، الهيئة العامة لقصور الثقافة (الذخائر)، ٢٠٠٣م.

٥- أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني. ت: محمود شاكر، طبعة المدني، ط أولى ١٤١٢هـ - ١٩٩١م.

٦- أسرار تنوع تشبيهات القرآن الكريم دراسة بلاغية، د. إبراهيم صلاح الهدهد. مكتبة وهبة، ط ثانية ١٤٤٠هـ - ٢٠١٩م.

٧- أسرار التنوع في تشبيهات القرآن الكريم – رسالة ماجستير، د. ملك حسن عبد الرزاق بخش. جامعة أم القرى ١٤٠٩-١٤١٠هـ.

٨- أساليب البيان والصورة القرآنية، د. محمد إبراهيم شادي. دار والي الإسلامية، ط أولى ١٤١٦هـ -١٩٩٥م.

٩- إصلاح المنطق، ابن السكيت. ت: عبد السلام هارون، أحمد محمد شاكر. دار المعارف، ط رابعة ١٩٨٧م.

١٠- الأصمعيات، أبو سعيد عبد الملك بن قريب. ت: أحمد شاكر، عبد السلام هارون . دار المعارف، ط سابعة ١٩٩٣م.

١١- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين الشنقيطي. دار الفكر – بيروت ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

١٢- الأطول، عصام الدين الإسفراييني. المطبعة السلطانية ١٢٨٤هـ.

١٣- إعجاز القرآن، أبو بكر الباقلانى. ت: أبو بكر عبد الرازق – مكتبة مصر ١٩٩٤م.

١٤- الإعجاز البلاغي، د. محمد أبو موسى. مكتبة وهبة، ط ثانية ١٤١٨هـ -١٩٩٧م.

١٥- الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق، د. عائشة عبد الرحمن. دار المعارف، ط ثالثة.

١٦- الأعلام، خير الدين الزركلي. دار العلم للملايين، ط ١٥ (٢٠٠٢م).

١٧- إعراب القرآن وبيانه، محيي الدين درويش. دار ابن كثير – بيروت، ط رابعة ١٤١٥هـ.

١٨- الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني. ت: سمير جابر، دار الفكر – بيروت، ط ثانية.

١٩- الأقصى القريب، القاضي التنوخي. مكتبة الخانجي، ط أولى ١٣٢٧هـ.

٢٠- الأمالي، أبو علي القالي. ت: محمد الأصمعي. دار الكتب المصرية، ط ثانية ١٣٤٤هـ -١٩٢٦م.

٢١- أنوار التنزيل وأسرار التأويل، (تفسير البيضاوى). مطبوع مع حاشية الشهاب.

٢٢- الإيضاح، الخطيب القزوينى. ت: د/ محمد عبد المنعم خفاجى – دار الجيل، ط ثانية ١٤١٤هـ – ١٩٩٣م.

٢٣- البحر المحيط ، أبو حيان الأندلسى. ت: صدقى محمد جميل – دار الفكر ١٤١٢هـ – ١٩٩٢م.

٢٤- البدل المفرد فى القرآن الكريم مواقعه وأسراره البلاغية ، د/ وليد إبراهيم حمودة – رسالة دكتوراه ، كلية اللغة العربية بإيتاى البارود ١٤٢٩هـ – ٢٠٠٨م.

٢٥- بديع القرآن، ابن أبي الإصبع المصري. ت: د. حفني شرف، نهضة مصر، ط ثانية ١٣٩٢هـ – ١٩٧٢م.

٢٦- البرهان فى علوم القرآن ، الزركشى . ت: محمد أبو الفضل إبراهيم. دار التراث ١٣٧٦هـ – ١٩٥٧م.

٢٧- بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز، الفيروزابادى. ت: محمد على النجار. المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٤٣١ هـ – ٢٠١٠م.

٢٨- تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة. ت: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية – بيروت.

٢٩- التبيان فى البيان ، الطيبى . ت: د. عبد الستار زموط ، دار الجيل، ط أولى ١٤١٦هـ -١٩٩٦م.

٣٠- تاج العروس، الزبيدي. دار الهداية.

٣١- تحرير التحبير، ابن أبى الإصبع. ت: د. حفنى شرف، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٤١٦هـ – ١٩٩٥م.

٣٢- التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور. دار سحنون – تونس . بدون.

٣٣- تشبيهات الجنة والنار في القرآن الكريم، د. سلامة جمعة داود. نشر مجلة كلية اللغة العربية بإيتاي البارود، مجلد (٣٠)عدد (١) عام ٢٠١٧م.

٣٤- التصوير الفني في القرآن الكريم، سيد قطب. دار الشروق، ط (١٧) ١٤٢٥هـ – ٢٠٠٤م.

٣٥- التعبير البياني، د. شفيع السيد.

٣٦- التعبير الفني في القرآن الكريم، د. بكري شيخ أمين. دار العلم للملايين، ط أولى ١٩٩٤م.

٣٧- التفسير البياني للقرآن الكريم، د. عائشة عبد الرحمن. دار المعارف، ط سابعة.

٣٨- تفسير القرآن العظيم، الحافظ ابن كثير. ت: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، ط أولى ١٤١٩هـ.

٣٩- التفسير القرآني للقرآن، الشيخ عبد الكريم الخطيب. دار الفكر العربي – القاهرة.

٤٠- ثلاث رسائل في إعجاز القرآن (الخطابي، الرماني، عبد القاهر الجرجاني). ت: د. محمد خلف الله أحمد، د. محمد زغلول سلام، دار المعارف، ط رابعة ١٩٩١م.

٤١- جامع البيان فى تفسير القرآن، الطبرى. دار المعرفة – بيروت ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م.

٤٢- الجامع لأحكام القرآن، القرطبى. دار الريان للتراث . بدون.

٤٣- جمهرة أشعار العرب، أبو زيد القرشي. ت: علي محمد البجاوي، دار نهضة مصر.

٤٤- الحجة في القراءات السبع، ابن خالويه. ت: د. عبد العال مكرم، دار الشروق – بيروت، ط رابعة ١٤٠١هـ.

٤٥- حركة المعنى في سورة الفجر – دراسة بلاغية، د. إبراهيم الهدهد. مكتبة وهبة، ط ثانية ١٤٤٠هـ - ٢٠١٩م.

٤٦- حاشية الجمل على الجلالين . دار الفكر . بدون.

٤٧- حاشية زادة على البيضاوى . دار إحياء التراث العربى – بيروت . بدون

٤٨- حاشية الشهاب على البيضاوى . ت: عبد الرازق المهدى، دار الكتب العلمية، ط أولى ١٤١٧هـ – ١٩٩٧م.

٤٩- الحماسة البصرية، علي بن أبي الفرج. ت: مختار الدين أحمد، عالم الكتب – بيروت.

٥٠- الحيوان، الجاحظ. دار الكتب العلمية، بيروت، ط ثانية ١٤٢٤هـ.

٥١- خزانة الأدب، عبد القادر البغدادي. ت: عبد السلام هارون، الخانجي – القاهرة، ط رابعة ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

٥٢- خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، د. عبد العظيم المطعني. مكتبة وهبة، ط أولى ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.

٥٣- دراسة في البلاغة والشعر، د. محمد أبو موسى. مكتبة وهبة.

٥٤- دراسات في علم البيان والتشبيه القرآني، د. صبَّاح عبيد دراز. ١٤٤١هـ -١٩٩٣م.

٥٥- الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، السمين الحلبي. ت: أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق.

٥٦- دعاوى الطاعنين في القرآن الكريم في القرن الرابع عشر الهجري والرد عليها، عبد المحسن المطيري. دار البشائر الإسلامية ، بيروت، ط أولى ١٤٢٧هـ – ٢٠٠٦م.

٥٧- دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجانى. ت: الشيخ محمود شاكر. المدنى، ط ثالثة ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م.

٥٨- ربيع الأبرار ونصوص الأخبار، الزمخشري. مؤسسة الأعلمي – بيروت، ط أولى ١٤١٢هـ.

٥٩- الرد على الجهمية والزنادقة، أبو علي الشيباني. ت: صبري سلامة شاهين، دار الثبات، ط أولى.

٦٠- روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى، الألوسى – دار الفكر ١٤٠٣هـ -١٩٨٣م.

٦١- الاستثناء المنقطع في القرآن الكريم – مدخل إلى بلاغته، د. وليد إبراهيم حمودة. نشر مجلة كلية اللغة العربية بإيتاي البارود، عدد (٢٥) ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م.

٦٢- سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي. ت: عبد المتعال الصعيدي، مكتبة محمد علي صبيح ١٣٧٢هـ – ١٩٥٢م.

٦٣- سنن الترمذي. ت:أحمد محمد شاكر وآخرون. دار إحياء التراث العربي – بيروت.

٦٤- سورة الواقعة ومنهجها في العقائد، الشيخ محمود غريب. دار التراث العربي – القاهرة، ط ثالثة ١٤١٨ هـ – ١٩٨٨م.

٦٥- شرح دلائل الإعجاز، د. محمد إبراهيم شادي. دار اليقين، ط ثانية ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م.

٦٦- شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات، أبو بكر الأنباري. ت: عبد السلام هارون، دار المعارف ط خامسة.

٦٧- شرح المعلقات التسع، المنسوب لأبي عمرو الشيباني. ت: عبد المجيد همو، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط أولى ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

٦٨- شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي. ت: محمد بدر الدين الحلبي، دار الفكر - بيروت ، ١٣٩٨هـ – ١٩٧٨م.

٦٩- الصناعتين، أبو هلال العسكرى. ت: د. مفيد قميحة – دار الكتب العلمية، ط ثانية ١٤٠٩هـ -١٩٨٩م.

٧٠- الطراز، الإمام العلوى. ت: محمد شاهين . دار الكتب العلمية – بيروت، ط أولى ١٤١٥ هـ – ١٩٩٥م.

٧١- الصحاح، الجوهري. ت: أحمد عبد الغفور عطا، دار العلم للملايين، ط رابعة ١٤٠٧هـ -١٩٨٧م.

٧٢- الصورة البيانية وقيمتها البلاغية، د. بسيوني عرفة. دار الرسالة، القاهرة ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

٧٣- الصورة الشعرية في الخطاب البلاغي والنقدي، د. الولي محمد. المركز الثقافي العربي – بيروت، ط أولى ١٩٩٠م.

٧٤- الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي، د. جابر عصفور.

٧٥- علم البيان، د. بدوي طبانة. مكتبة الأنجلو المصرية، ط رابعة ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م.

٧٦- العمدة، ابن رشيق. ت: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، ط خامسة ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

٧٧- العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي. ت: د مهدي المخزومي، د. إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال.

٧٨- غرائب القرآن ورغائب الفرقان، نظام الدين النيسابوري. ت: تحقيق : الشيخ زكريا عميران، دار الكتب العلمية، بيروت ط أولى ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.

٧٩- غريب القرآن، ابن قتيبة. ت: أحمد صقر، دار الكتب العلمية، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.

٨٠- الفائق في غريب الحديث، الزمخشري. ت: علي محمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة – لبنان.

٨١- فتح القدير، الإمام الشوكاني. دار ابن كثير، دمشق، ط أولى ١٤١٤هـ.

٨٢- فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب (حاشية الطيبي على الكشاف). نشر جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، ط أولى ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م.

٨٣- فن التشبيه، الأستاذ علي الجندي. مكتبة الأنجلو المصرية، ط ثانية ١٣٨٦هـ - ١٩٦٦م.

٨٤- فن الشعر، إحسان عباس. دار الثقافة – بيروت، ط ثالثة.

٨٥- قضايا النقد الأدبي بين النظرية والتطبيق، د. طه عبد البر. دار التأليف، ط أولى ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

٨٦- الكشاف، الزمخشرى. ت: عادل عبد الموجود، على معوض. العبيكان، ط أولى ١٤١٨هـ – ١٩٩٨م.

٨٧- الكليات، أبو البقاء الكفوي. ت: عدنان درويش، محمد المصري، مؤسسة الرسالة – بيروت.

٨٨- الكامل في اللغة والأدب، المبرد. ت:محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، ط ثالثة ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

٨٩- لباب التأويل في معاني التنزيل (تفسير الخازن). ت: محمد شاهين، دار الكتب العلمية – بيروت، ط أولى ١٤١٥هـ.

٩٠- لسان العرب، ابن منظور. ت: عبد الله الكبير وآخران. دار المعارف، ط ثالثة. بدون.

٩١- مباحث في طرق علم البيان، د. رفعت إسماعيل السوداني. اللوتس للطباعة، مصر ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.

٩٢- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين ابن الأثير. ت: محمد محيي الدين عبد الحميد. المكتبة العصرية – بيروت ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.

٩٣- المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية. ت: عبد السلام محمد. دار الكتب العلمية، ط أولى ١٤٢٢هـ – ٢٠٠١م.

٩٤- المحصول في علم الأصول، الإمام الرازي. ت: طه جابر العلواني، نشر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية – الرياض، ط أولى ١٤٠٠هـ.

٩٥- المحكم والمحيط الأعظم، أبو الحسن ابن سيده. ت: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية – بيروت، ط أولى، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

٩٦- مدارك التنزيل وحقائق التأويل (تفسير النسفي)، دار الكلم الطيب – بيروت ، ط أولى ١٤١٩هـ -١٩٩٨م.

٩٧- المستقصى في أمثال العرب، الزمخشري. دار الكتب العلمية، بيروت.

٩٨- مصادر التفكير النقدي والبلاغي عند حازم القرطاجني، د. منصور عبد الرحمن. مكتبة الأنجلو المصرية.

٩٩- معترك الأقران في إعجاز القرآن، السيوطي. دار الكتب العلمية – بيروت، ط أولى ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

١٠٠- المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم، د. محمد حسن جبل. مكتبة الآداب – القاهرة، ط أولى، ٢٠١٠م.

١٠١- معالم التنزيل في تفسير القرآن (تفسير البغوي)، ت: عبد الرزاق المهدي. دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط أولى ١٤٢٠هـ.

١٠٢- معاني القرآن، أبو جعفر النحاس. ت: محمد علي الصابوني، جامعة أم القرى - مكة المكرمة، ط أولى، ١٤٠٩هـ.

١٠٣- معاني القرآن، الفراء. ت: محمد علي النجار، وآخران، المصرية للتأليف والترجمة – مصر، ط أولى.

١٠٤- المعاني الكبير، ابن قتيبة. دار الكتب العلمية، بيروت ، ط أولى ١٤٠٥هـ - ١٩٨٤م.

١٠٥- مفتاح العلوم، الإمام السكاكى . ت: نعيم زرزور. دار الكتب العلمية، ط ثانية ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

١٠٦- مفاتيح الغيب، الإمام الرازى. دار الفكر، ط ثانية ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

١٠٧- المفردات فى غريب القرآن، الراغب الأصفهانى. ت: وائل عبد الرحمن، المكتبة التوفيقية، القاهرة ٢٠٠٣م.

١٠٨- المفضليات، المفضل الضبي. ت: أحمد محمد شاكر، عبد السلام محمد هارون. دار المعارف، ط سادسة.

١٠٩- مقاييس اللغة، ابن فارس. ت: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

١١٠- ملاك التأويل، ابن الزبير الغرناطي. ت:عبد الغني محمد علي الفاسي، دار الكتب العلمية، بيروت.

١١١- من بلاغة القرآن، د. أحمد بدوي. نهضه مصر – القاهرة ٢٠٠٥م.

١١٢- مواهب الفتاح، ابن يعقوب المغربي (ضمن شروح التلخيص)، دار الإرشاد الإسلامي، بيروت.

١١٣- من جماليات التصوير في القرآن، محمد قطب.

١١٤- المنهاج في شعب الإيمان، أبو عبد الله الحليمي. ت:حلمي محمد فودة، دار الفكر، ط أولى ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

١١٥- نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور، الإمام البقاعى. ت: عبد الرازق المهدى. دار الكتب العلمية – بيروت، ط ثانية ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٣م.

١١٦- النقد الأدبي الحديث، د. محمد غنيمي هلال. دار نهضة مصر.

١١٧- نقد الشعر، قدامة بن جعفر. ت: كمال مصطفى. مكتبة الخانجي – القاهرة، ط ثالثة ١٣٩٨هـ -١٩٧٨م.

١١٨- النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير. ت: طاهر أحمد الزاوى، محمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية – بيروت ، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
تقديم	٤٣٣٣ ـ ٤٣٣٨
التمهيد	**٤٣٣٩ ـ ٤٣٦٨**
أولًا: جذور الفكرة وقطوفها	**٤٣٤٠ ـ ٤٣٥٢**
ثانيًا: إشارات سابقة	٤٣٥٣ ـ ٤٣٦٢
ثالثًا: وظيفة التشبيه	٤٣٦٣ ـ ٤٣٦٨
المبحث الأول: الخروج من الأجداث	٤٣٦٩ ـ ٤٤٠٦
المبحث الثاني: نساء أهل الجنة	٤٤٠٧ ـ ٤٤٣٣
المبحث الثالث: ولدان الجنة	٤٤٣٤ ـ ٤٤٣٨
المبحث الرابع: شجرة الزقوم	٤٤٣٩ ـ ٤٤٦٩
الخاتمة	٤٤٧٠ ـ ٤٤٧٤
فهرس المراجع	٤٤٧٥ ـ ٤٤٨٣
فهرس الموضوعات	٤٤٨٤